

راوية الأفلام

إيرنان ريبيرا لتيلير

ترجمة
صالح علماني

إيرنان ريبيرا لتيلير

راوية الأفلام

ترجمة

صالح علماني







راوية الأفلام

الطبعة العربية الأولى ٢٠١١
دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
مؤسسة قطر، فيلا رقم٣، المدينة التعليمية
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر
www.bqfp.com.qa

صدر هذا الكتاب للمرة الأولى في تشيلي عام ٢٠٠٩
La contadora de películas

c/o Guillermo Schavelzon & Asoc., Agencia Literaria
www.schavelzon.com

الترقيم الدولي: ٠-٠١-٩٤-٩٩٩٢١-٩٧٨

Printed in Great Britain by Clays Ltd, St Ives plc



إلى «كلاوديو أباركا»، الدب،
وكان له ابن عم راوي أفلام.


Twitter: @ketab_n

«إننا مصنوعون من مادة الأحلام نفسها.»

شكسبير

«إننا مصنوعون من مادة الأفلام نفسها.»

الحورية ديلسين


Twitter: @ketab_n

(١)

لأن النقود في البيت كانت تتسرب منا كما لو أنها تمضي على حصان يعدو بينما نحن نمضي مشيًا على الأقدام، فإننا كلما وصل إلى سينما المعسكر المنجمي فيلمٌ يبدو لأبي جيدًا - من خلال اسم الممثل الرئيسي أو الممثلة الرئيسية فقط - تُجمع قطع النقود واحدة فواحدة.. ما يكفي ثمنًا لتذكرة الدخول، ويرسلونني لمشاهدة الفيلم.

وبعد ذلك، فور عودتي من السينما، يكون عليَّ أن أروي الفيلم للأسرة المجتمعة بكامل أفرادها في غرفة المعيشة.


Twitter: @ketab_n

(٢)

كان بديعًا أن أجد أبي وإخوتي، بعد مشاهدتي الفيلم، ينتظرونني متلهفين في البيت، جالسين في صفٍّ كما في السينما، وقد سرحوا شعورهم للتو واستبدلوا ملابسهم.

أبي يجلس واضعًا بطانية بوليفية على ساقيه، ويشغل المقعد الوحيد لدينا، وكان مكانه ذاك هو مقصورة الصالة. وعلى الأرض، إلى جانب المقعد، تلمع زجاجة نبيذه الأحمر والكأس الوحيدة المتبقية في البيت. أما الصالة فكانت مقعدًا طويلًا، من خشب خشن، يجلس عليه إخوتي بالترتيب، من الأصغر إلى الأكبر. وفيما بعد، عندما بدأ بعض أصدقائهم يُطلُّون من النافذة، صارت تلك النافذة هي البلكون.

كنت أصل آتية من السينما، فأتناول بسرعة فنجان شاي - يكونون قد أعدوه لي - وأبدأ عرضي. أقف في مواجهتهم، وظهري إلى الحائط المطلي بالكلس؛ حائط أبيض كما شاشة السينما، وأبدأ في رواية الفيلم لهم «من ألِفه إلى يائه»، مثلما كان يقول أبي، مُحاولةً ألا أنسى أي تفصيل، لا من القصة، ولا من الحوار، ولا من الشخصيات.

وبالمناسبة، لا بد لي من التوضيح أنهم لم يكونوا يرسلونني إلى السينما بسبب كوني الأنثى الوحيدة في الأسرة، وكونهم هم - أي أبي وإخوتي - رجالًا «جنتلمانات» في التعامل مع السيدات. لا، لا يا سيدي؛ لقد كانوا يرسلونني لأنني أفضل منهم جميعًا في رواية الأفلام. أجل، مثلما تسمع: أفضل راوية أفلام في الأُسرة. ثم صرت الأفضل في صف البيوت الذي يُشكل حارتنا، وبعد قليل من ذلك صرت الأفضل في المعسكر المنجمي كله. وحسب علمي لم يكن هناك أحد في المعسكر يتفوق عليَّ في رواية الأفلام، أيًّا كان نوع الأفلام: كاوبوي، رعب، حرب، مرتزقة، حب، وكذلك الأفلام المكسيكية طبعًا، وهي أكثر ما يروق لوالدي باعتباره جنوبيًّا أصيلًا.

وفي فيلم مكسيكي بالضبط، أحد تلك الأفلام الغنائية والبكائية، كسبتُ اللقب؛ لأنه كان لا بد لي من كسب اللقب.

أم إنكم تظنون أنه جرى اختياري من أجل قامتي؟

(٣)

كنا خمسة إخوة في الأُسرة: أربعة ذكور وأنا. وكنا نحن الخمسة نُشكِّل سُلَّمًا متدرجًا حقيقيًّا ومتقنًا، سواء من جهة الحجم أو العمر، وكنتُ أنا أصغرهم.

أتتصورون ما يعنيه أن أترعرع في بيت مع إخوة ذكور وحسب؟ لم ألعب بالدمى قطُّ، ولكنني كنت، في المقابل، بطلة في لعبة الكرات ولعبة العِصِيِّ. ولم يكن هناك من يتفوق عليَّ في قتل الحراذين في منطقة مناجم ملح البارود كلها؛ فحيث أصوب عيني، باف، يموت حرذون بضربة حجَري.

كنت أمضي حافية طيلة النهار، أدخن خفية، وأضع قبعة ذات واقية، بل إنني تعلمت التبول واقفة.

فالرجال يبولون وقوفًا، وتبول النساء مقرفصات.

وكنت أفعل ذلك في أي مكان من سهب البامبا، مثلما يفعل إخوتي، بل إنني في المنافسات على من يوصل بوله أبعد، كنت أكسب عليهم بإيصاله أبعد منهم جميعًا، حتى وأنا أقف بعكس اتجاه الريح.

عندما أكملت السابعة من عمري دخلت المدرسة. وفضلًا عن معاناة

التضحية بالاضطرار إلى لبس تنورة، تكلفت مشقة في الاعتياد على التبول مثلما يجب أن تفعل الآنسات.

لقد كلَّفني ذلك مشقة أكبر من مشقة تعلم القراءة!

(٤)

عندما خطرت لأبي فكرة إجراء المسابقة بيننا كنت في العاشرة من عمري، وفي السنة الثالثة من التعليم الابتدائي. كانت فكرته تتلخص في إرسالنا إلى السينما واحدًا فواحدًا، ثم جعلنا بعد ذلك نروي له الفيلم، ومن يرويه أفضل من الجميع يذهب إلى السينما كلما عرضوا فيلمًا جيدًا، أو فيلمًا مكسيكيًّا.

يمكن للفيلم المكسيكي أن يكون جيدًا أو سيئًا، ولكن أبي لا يهمه ذلك. وطبعًا يجب أن تتوافر النقود لشراء تذكرة الدخول.

أما الآخرون فيقنعون بالاستماع إلى رواية الفيلم بعد ذلك في البيت.

أعجبتنا جميعًا الفكرة، وشعرنا جميعًا بأننا قادرون على الفوز. ولم يكن ذلك عبثًا، فقد كنا، مثل جميع الأطفال الآخرين في المعسكر، في كل مرَّة نتمكن فيها من الذهاب إلى السينما، نبدأ فور خروجنا منها بمحاكاة «شبان» الفيلم في أفضل مشاهدهم؛ إخوتي يقلدون بدقة مشية «جون واين» المتقوّسة ونظرته الزائغة، وتكشيرة «همفري بوغارت»

المزدرية، ولحظات ذهول «جيري لويس» غير المعقولة. أما أنا فكنت أُميتهم من الضحك حين أحاول أن أحرك رموشي على طريقة «مارلين مونرو»، أو أن أُحاكي تقطيبات الطفلة البريئة - براءة شهوانية - التي تبديها «بريجيت باردو».

(٥)

سيتساءل البعض: «لماذا لا يذهب أبي بنفسه إلى السينما، حين يعرضون فيلمًا مكسيكيًّا على الأقل؟». أبي لا يستطيع المشي! لقد تعرَّض لحادث عمل خلَّفه مشلولًا في نصفه السفلي. لم يعد يعمل. وهو يتلقى معاش عجزٍ بائسًا، يكاد لا يكفي إلا لتوفير الأكل بصورة سيئة!

بل إننا لا نملك له كرسيًّا ذا عجلات. ومن أجل نقله من حجرة الطعام إلى حجرة النوم، أو من حجرة الطعام إلى الباب الخارجي - حيث يطيب له شرب زجاجته من النبيذ الأحمر وهو يرى انقضاء المساء ومرور أصدقائه - عمل إخوتي على تأهيل كرسيه بأن أضافوا إليه عجلات درَّاجة أطفال قديمة. وقد كانت تلك الدراجة ثلاثية العجلات هي أول هدية تلقَّاها أخي الأكبر في عيد ميلاده، ولم تتحمل عجلاتها ثقل أبي وقتًا طويلًا، فاعوجَّت، وصار لا بد من إصلاحها بصورة دائمة.

وماذا عن أمي؟ حسنٌ، أمي، بعد الحادث، هجرت أبي. تركته وتركتنا نحن أبناءها الخمسة. هكذا، بصورة مفاجئة! ولهذا حظر علينا أبي التحدث عنها في البيت، حظر التحدث عن «الفاجرة»، مثلما كان يدعوها بازدراء.

«لا تذكروا أمامي تلك الفاجرة.» هذا ما كان يقوله كلما أفلتت من أحدنا، دون إرادة منه، كلمة ماما.

ثم يدخل بعدها في صمت يتطلَّب إخراجه منه ساعات طويلة.

(٦)

أتذكر عندما كانت أمي معنا - قبل حدوث الكارثة - وكنا أُسرة كاملة، وكان أبي يعمل (ولا يشرب كثيرًا مثلما يفعل الآن)، كانت تستقبله بقُبلة عند عودته من العمل، وفي نهاية كل أسبوع كنا نذهب نحن السبعة معًا إلى السينما.

كم كنت أحب طقوس التهيُّؤ من أجل الذهاب إلى السينما!

«اليوم يعرضون فيلمًا لـ«إيدي ميرفي»»، يقول أبي وهو يدخل. (في ذلك الزمن كان نجوم السينما هم مَن يمنحون أهمية للأفلام.)

وعندئذ نرتدي أفضل ملابسنا، حتى إننا ننتعل أحذية. كانت أمي تسرح شعر كل واحد من إخوتي؛ تسرح شعورهم تسريحة الليمونة، بفرق الشعر في منتصف الرأس مضبوطًا «على المسطرة»، باستثناء «مارثيلينو»، الرابع بين إخوتي، فكان شعره قاسيًا مثل الشوك، وكيفما سرحوه له يبقى رأسه على الدوام أشبه بكتاب مفتوح. أما أنا فكانت تجعل لي ذيل حصان مثبتًا بشريط مطاط أسود، ومشدودًا جدًّا، إلى حدٍّ تكاد معه عيناي أن تطفرا من وجهي.

كنا نذهب دائمًا إلى العرض المسائي.

وكان ذلك يبهجني؛ لأن الغروب في نظري هو أجمل الساعات في البامبا، حيث تُلوِّن آخر أشعة الشمس صدأ ألواح التوتياء بلون الذهب، وتُشكِّل ألوان الغسق توافقًا بديعًا مع المناديل الحريرية التي تستخدمها أمي.

لقد كانت أمي مولَعة إلى حدِّ العبادة بالمناديل الحريرية.

وكما هي العادة في منطقة البامبا، كنا نمضي في وسط الشارع الترابي، بمواجهة الغيوم الحمراء التي تتخللها أشعة الشمس. وكان جميع من نصادفهم من الرجال المارين يحيون أبي الذي يمضي متأبطًا ذراع أمي.

«مساء الخير أيها المعلم «كاستييّو»!»

«مساء الخير يا سيد فلان.»

وكنت ألاحظ أنهم يحيونه هو، ولكنهم ينظرون إلى أمي؛ فقد كانت جميلة جدًّا وشابة، وكانت تهز مؤخرتها وهي تمشي مثل ممثلات الأفلام.

عند بلوغنا الناصية نبدأ بسماع الموسيقى الصادرة عن مكبرات الصوت القديمة فتنتفخ قلوبنا بالبهجة. كانت هناك خارج الصالة عربات لبيع الترهات، وكانت أمي تشتري قطع كعك لها ولأبي، وقمع حلوى مقلية لكل واحد منا.

وكنا أول من يدخل إلى الصالة.

(٧)

لم نكن نحن مثل الأشخاص الآخرين، الذين ينتظرون إلى أن تدوي نغمات المارش، التي تشير إلى بدء العرض كي يدخلوا إلى الصالة بتزاحم قطيع؛ لقد كنا نحب الوصول باكرًا، وانتظار بدء الفيلم في الداخل.

كانت قاعة السينما المظلمة تبعث فيَّ الافتتان؛ تبدو لي أشبه بمغارة غامضة، سرية، وغير مكتشفة على الدوام، فما إن نجتاز ستائر الباب المخملية السميكة حتى يخامرني الوهم بالانتقال من عالم الواقع الفظ إلى عالم سحري.

كنا نجلس في الصف الأول، شبه ملتصقين بتلك الشاشة البيضاء الهائلة، التي أراها كما لو أنها المذبح الأكبر في الكنيسة. وذروة ذلك الطقس كله تُشكِّله اللحظة السحرية التي تنطفئ فيها الأنوار، وتُغلق الستائر، وتخمد الأصوات، وتضج الشاشة بالحياة والحركة.

عندئذ أظل كالمُعلَّقة في الهواء.

فهذه هي ذروة السحر الغريب الذي تمارسه عليَّ السينما. عليَّ وعلى أمي. إنني أعرف ذلك الآن. الفرق بيننا وبين أبي وإخوتي هو أن السينما كانت تروق لهم وحسب، أما أنا وأمي فتبعث فينا الجنون.

ما إن تنطفئ الأنوار حتى يستوي الجميع، ويتيبسون أمام الشاشة. أما أنا فلا. كنت أدير رأسي؛ كي أرى ظهور شعاع الضوء الذي يخرج من كوة حجرة العرض، وينفجر في صور وأصوات. وفي أحيان كثيرة، عندما لا يكون الفيلم مسليًا مثلما أرغب (يكون فيه كثير من تبادل الحوار وقليل من الأكشن)، أتخلى عن مشاهدته؛ كي أتأمل بانبهار حزمة ذرات الغبار المضيئة السحرية. كنت أرى أن معجزة دفقة الضوء تلك تحمل معها أشياء عجيبة، منها قطارات يطاردها هنود على الخيول، وسفن قراصنة في بحار هائجة، وتنانين خضراء تنفث نارًا من رؤوسها السبعة.

كنت أعتقد آنذاك أن الصوت أيضًا يتدفق من هناك، وكذلك دوي طلقات الرصاص، وأغنيات مغني المارياتشي الجميلة في الأفلام المكسيكية، ولكنني تعلمت فيما بعد أن الأمر ليس كذلك، مثلما تعلمت أشياء كثيرة أخرى، بعضها أقرب إلى أن تكون من النوع التقني، كما هي الحال على سبيل المثال في معرفتي أن أربعًا وعشرين صورة هي التي تمر أمام أعين المشاهدين من أجل خلق وهم الحركة. لم أكن أدري ما الذي ستفيدني فيه تلك المعلومات، ولكنني كنت راغبة في معرفة كل شيء عن السينما. وقد حدث ذلك كله عندما خطر لي أن أقرأ مجلة «إيكران» التي اكتشفتُ وجودها في مكتبة المركز.

كنت أقرأ تلك المجلات بنهم مفرط.

ولكنني لا أريد استباق الأمور؛ لأن هذا كله جاء بعد تحوُّلي إلى راوية أفلام.

(٨)

بيوت المعسكر، مثلما هي في جميع معسكرات مناجم ملح البارود في منطقة البامبا، تحدد بدقة توزع الطبقات الاجتماعية الثلاث السائدة: بيوت صفيح التوتياء للعمال، وبيوت الطين للموظفين، والشاليهات الفخمة للغرينغيين الأجانب.

وكان بيتنا عبارة عن كوخ من التوتياء المثلمة، مقسمة إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول هو حجرة المعيشة، أو الـ«ليڤينج» كما يسميها الناس (مع أنه لم تكن هنالك أي معيشة «ليڤينج» في حجرتنا تلك). والقسم الثاني يستخدم كحجرة نوم. والقسم الأقصى يُشكل المطبخ وغرفة الطعام. وكانت حجرة النوم تتسع بالضبط للأَسِرَّة الحديدية الثلاثة التي نملكها. على أحد تلك الأَسِرَّة ينام أبي، وعلى الآخر إخوتي الثلاثة الأكبر، وعلى السرير الثالث أنام أنا وأخي الأصغر «مارثيلينو».

أنام أنا عند رأس السرير، وهو في الجهة الأخرى.

أما أسماء إخوتي، من الأكبر إلى الأصغر، فهي: «ماريانو» و«ميرتو» و«مانويل» و«مارثيلينو». واسمي أنا «ماريا مرغريتا». ولا بد أنكم لاحظتم

أن لدى أبي تركيز على الأسماء التي تبدأ بحرف الميم. وهذا، حسب ما سمعته يرويه ذات مرَّة، بعد أن حلَّت به المصيبة، أنه فضلًا عن أن اسمه «ميداردو»، كان اسم أمه «مارتينا» واسم أبيه «ماغنو».

ويخيل إليَّ اليوم أن السبب الوحيد لزواجه من أمي هو أن اسمها «ماريا ماغنوليا». ذلك أنهما لم يكونا متشابهين في أي شيء، لا يجمع بينهما أدنى تماثل، فقد كانا مثل الزيت والخل، فضلًا عن أن أبي يكبرها في العمر بخمس وعشرين سنة.

«هذا ما كان شائعًا في الأرياف.» هكذا سمعتُ أمي تقول في أحد الأيام، بنبرة مستاءة، عندما أبدت إحدى الجارات استغرابها من ذلك الفارق في السن بينهما.

(٩)

اعتاد أبي أن يقول دومًا، عند الحديث عن سحر الأسماء التي تبدأ بحرف الميم: «إن هذا هو السر في أعظم فناني السينما. وإن كان هنالك من لا يُصدق، فليمعن النظر في «نورما جين»: كانت مجرد موظفة في متجر إلى أن أعادت تعميد نفسها باسم «مارلين مونرو». وإذا كنتم ترغبون في مثال معكوس، لديكم المكسيكي «كانتنفلاس»، أعظم الكوميديين في السينما الهسبانية، والفضل في تحقيقه النجاح إنما يعود إلى أن اسمه في الحياة الواقعية هو «ماريو مورينو». هكذا هي الحال دومًا. ألا تصدقني؟». وعند هذا الحدّ كان أبي يتوقف عن الكلام لحظات، ينظر إلى محدثه مثلما ينظر الجلاد إلى المحكوم عليه قبل توجيه الضربة إليه، ثم يضيف ما كان قد سمعه ذات مرة في مكان ما، وصار يُشكِّل في نظره الدليل غير القابل للدحض على صحة نظريته، وشيئًا أشبه بضربة فأس جلاد أخيرة: «أتعرف يا صاحبي - يقول متلذذًا بكلماته - أن «ماريو مورينو» في بداياته، عندما كان مجرد ممثل في السيرك، كان يعمل بديلًا لممثل كوميدي يدعى «مانويل ميديل»».

لقد توصلتُ الآن إلى الاعتقاد بأن «مارلين مونرو» كانت تروق له بسبب الميمين في اسمها أكثر من أي سبب آخر. وقد كان يرغب على الدوام في إنجاب «ابنة» كي يعمدها بهذا الاسم، غير أن أمي كانت تقول إنها لن توافق على ذلك لو ماتت، وتؤكد أنها تمقت «تلك الشقراء الأكسيجينية التي لا تتقن حتى التمثيل جيدًا في الأفلام». ولكنها كانت تحاكي، مع ذلك، تلك الممثلة بالذات حين تمشي. وعندما سمعت خبر موتها، قبل قليل من هجرها لنا، بكت بحرقة ودون عزاء طوال الليل.

عندما توالت في الأُسرة ولادة أبناء ذكور فقط، وتوالت خيبات أمل أبي في أن تكون له ابنة يسميها «مارلين»، لم تكن هنالك مشاكل كبرى في اختيار الأسماء إلى أن جاء الابن الرابع، فلم يعد قادرًا على التحمل عندئذ، وأراد تعميده باسم «مارلينو»، فعارضته أمي وبيدها سكين المطبخ.

ومع ذلك فإن الحرب العظمى بينهما نشبت عند ولادتي أنا؛ يقولون إن أبي كان يتألق سعادة عندما عرف أن طفلة قد ولِدت له أخيرًا، وستكون لديه الآن «مارلين» في البيت، ولكن أمي رفضت ذلك، بل إنها هددت بالطلاق، وأخيرًا قنع أبي وارتضى الاكتفاء بحرف ميم مزدوج في اسمي وصرتُ أدعى «ماريا مرغريتا»، وهو اسم لم يرُق لي في الحقيقة كثيرًا؛ أشعر بأن له رنة وداعة، رنة خنوع، رنة أمٍّ مُذعنة.

كنت أريد أن أكون شيئًا آخر في الحياة.

لست أدري ماذا، ولكن شيئًا آخر.

وفي هذا الأمر كنت أُشبه أمي؛ فهي لم تكن راضية عن أي شيء قطّ: تُبدل تسريحة شعرها على الدوام، وتجرب أساليب مكياج جديدة، وتتدرب على إيماءات ووقفات مختلفة قبالة المرآة، وتكرر كلمات تكاد لا تتوصل

الطفلة التي كُنتها آنذاك إلى فهمها: «لماذا أرتضي أن أكون مجرد حشرة حُباحب مضيئة، بينما بمقدوري أن أصير نجمة».

وتتبختر كمجنونة أمام المرآة.

ولهذا، عندما صرتُ مشهورة كراوية أفلام، اتخذت اسمًا أكثر مطابقة لفني، ولكنني سأواصل الآن التقدم في قصتي.

صبرًا، فذلك كله سيأتي فيما بعد.


Twitter: @ketab_n

(١٠)

لا بد لي من أن أعترف بأني لم أتصور قطّ أنني سأكون أنا من ستكسب مسابقة «مَن يروي الفيلم أفضل من الآخرين»؛ فأخي «ميرتو»، وهو الأخ الثاني، المُلقب بـ«العصفور»، والمُكلَّف في البيت بالمشتريات، كان المُفضل من الجميع، حتى إنني أنا نفسي كنت سأصوِّت لمصلحته وأنا مغمضة العينين؛ فقد كان على الدوام مرحًا ومترنمًا، يقضي النهار كله وهو يروي أشياء تحدث له، وكان يتمتع بكثير من حس السخرية.

أما أخي «ماريانو» في المقابل، وهو الأكبر، فكانوا يلقبونه بسبب تلعثمه «الجرارة»، وكان يتولَّى في البيت مسؤولية الطبخ. وعلى الرغم من أنه أذكى الجميع، و«أكثر جدية من عريف في الحرس» - كما كان يقول عنه أبي - إلا أنه لم يكن لديه أدنى احتمال في الفوز بسبب تلعثمه في الكلام. لقد بدأ المسكين التلعثم مذ ذهبت أمنا وتركتنا.

أما أخي «مانويل»، وهو الثالث، والمسؤول عن النظافة، فلم يكن محبًّا للسينما. لقد كان اهتمامه بكرة القدم أكبر من اهتمامه بأي شيء آخر في الدنيا. إنه راقص كرة قدم متمادٍ في غيه، وكانت مبارياته تدوم طيلة النهار: الشوط الأول في الصباح، والشوط الثاني بعد الظهر، مع استراحة قصيرة

لتناول الغداء. وبسبب عادته في جمع كومة من التراب كلما كان عليه أن يركل الكرة، لقبوه «الكومة الصغيرة».

الجميع في البامبا كانوا يتباهون بفخر باتخاذ أسماء مستعارة، ومَن ليس له مثل ذلك الاسم يظل مجهولًا، ويكون السيد لا أحد، من لا وجود له.

أخي الرابع، «مارثيلينو»، الشهير بلقب «رأس الكتاب»، كانت له روح فنان، يحب الرسم والتلوين بأقلام ألوان. وكان في البيت أقرب إلى الصمت، يحب الاستماع أكثر من التكلم. وكانت مهمته الوحيدة هي إخراج الزبالة من البيت.

وبعد ذلك آتي أنا، ولأنني أنثى لم يكن هناك من يعيرني أدنى اهتمام؛ فقد كان الجميع يظنون أن النساء لسن نافعات في شيء سوى ترتيب الأَسِرَّة وجلي الأطباق - وهذا ما أتولى مسؤوليته في البيت - وبالتالي لم يكن لي أي حظ في الفوز. وعلى الرغم من ذلك كانت هناك أمور ثلاثة تمنحني ميزة عليهم، وإن كنت أنا نفسي لا أدرك ذلك آنذاك: أول تلك الأمور أنني كنت ألتهم قصص «أبالونغ كاسيدي» و«جين أوستري» و«كيد كولت»، وجميع أبطال الغرب القديم، أما هم فلا يقرأون شيئًا. الأمر الثاني أنني كنت مجنونة بالمسلسلات الإذاعية، وهي هواية ورثتها عن أمي التي لم تكن تضيع - وهي تحملني بين ذراعيها - حلقة واحدة من حلقات «إزميرالدا ابنة النهر». والأمر الثالث هو شيء كان يجهله حتى أبي نفسه: في صغري كانت أمي تنومني وهي تروي لي أفلامًا رومانسية - وهي أفلامها المفضَّلة - وهذا شيء لم تفعله مع أي من إخوتي.

«هذه أشياء تخصنا أكثر نحن النساء.» اعتادت قول هذا لي وهي تغمز غمزة تواطؤ كنت أعبدها.

(١١)

أول من ذهب إلى السينما هو أخي الأكبر «ماريانو»، المُلقب بـ«الجرارة». وكانت روايته للفيلم كارثية؛ فقد عرضوا في ذلك اليوم فيلمًا حربيًّا - ألمان ضد أمريكيين - والشيء الوحيد الذي فهمه أخي المسكين وخرج منه بطلاقة هو أزيز الرشاشات والإيماءات. كان يحاكي الحركات والإيماءات بصورة عبقرية. وأظن لو أن المنافسة كانت في زمن السينما الصامتة، لفعل ذلك على أحسن وجه.

أما أخي «ميرتو»، العصفور، فكان من نصيبه مشاهدة فيلم هنود، من بطولة «جاك بالانس». وكانت روايته للفيلم استثنائية: عدو الخيول، وصوت طلقات الرصاص، وصرخات الهنود، وإشارات الدخان، بل بدا لنا أننا نسمع صفير السهام تمر فوق رؤوسنا، زووووووم! والشيء السيِّئ الوحيد هو أن «ميرتو» كان يروي ذلك كله مع كثير من «البله» و«البراز»: «عندئذ، حين أخرج الأبله المسدس وأطلق النار على رأس البلهاء، وقع البراز الكبير، لأن البُلهاء الآخرين لن يسمحوا ولو كانوا يتبرزون أن يتبرزونهم من تلك الـ...».

و«مانويل»، الذي لم يكن راويًا سيئًا، كان من نصيبه فيلم مصاصي دماء، ومع ذلك فقد ضيعه الحب؛ فمنذ الثانية عشرة من عمره وقع في حب ابنة صاحب الدكان الذي يحتوي أوسع تشكيلة من البضائع في المركز (إنه الأخ

الوحيد المغازل)، وقد أمضى الساعة والأربعين دقيقة التي دامها الفيلم وهو يحتضن الصبية الصغيرة التي كانت تصرخ رُعبًا من أهوال الفيلم.

أما حالة أخي «مارثيلينو» فكانت ذروة في سوء الحظ؛ فهو الصموت بطبعه («لا بد من سحب الكلمات من هذا الطفل بكماشة.» هذا ما كانت تقوله أمي حين كانت معنا في البيت)، وقد قُدِّر له أن يشاهد فيلم «العجوز والبحر»، وهو فيلم يكاد أن يكون بلا حوار.

لم تستمر روايته للفيلم أكثر من خمس دقائق.

بعد أسبوعين من ذلك جاء دوري أنا، الأخت الصغرى، «ماريا مرغريتا»، أو «م.م»، كما يدعوني أبي أحيانًا. ومع أنه لم يكن لي لقب رسمي، إلا أنني كنت أعرف أن بعض الصبية يلقبونني «ماري المسترجلة». صحيح أن هذا اللقب لم يكن مهذبًا جدًّا، ولكنكم إذا ما دققتم النظر سترون أنه مؤلَّف من كلمتين تبدآن بحرف الميم.

خلال ذينك الأسبوعين جاءت أفلام جيدة، وبعضها جيدة جدًّا، ولكن لم يكن لدينا نقود لشراء تذكرة الدخول. كان ذلك في منتصف الشهر، وما لدينا لا يكاد يكفي لأكثر من الطعام وزجاجة نبيذ أبي اليومية.

كان أبي يقول: «لا بد من الانتظار إلى أن يُدفع الراتب التقاعدي.» وحدث في ذلك اليوم بالضبط، أن ما ظهر في لوحة إعلانات السينما لم يكن سوى فيلم «بن هور»، الفيلم الذي كان جميع مَن في المعسكر ينتظرونه بلهفة.

كان إخوتي كالمجانين.

جميعهم يريدون الذهاب إلى السينما، أو يريدون أن يذهب «ميرتو»؛ على الأقل لأنه، كما راحوا يقولون، أفضل من روى فيلمًا حتى ذلك الحين، ولكن أبي الذي كان رجلًا عادلًا، رفض ذلك: «إنه دور «ماريا مرغريتا» هذه المرة، وقد قلت إن «ماريا مرغريتا» هي من ستذهب».

(١٢)

استمر الفيلم ثلاث ساعات، وقد بكيتُ أكثر من بكاء «سارا غارسيا» ممثلة السينما المكسيكية العجوز.

لم يرُق لي أي فيلم من قبل مثل ذلك الفيلم. وقد عرفت فيما بعد، فضلًا عن أنه طويل جدًّا، أنه أغلى فيلم في التاريخ، وأنه قد نال إحدى عشرة جائزة أوسكار، كما أن «تشارلتون هيستون» هو أحد أكثر من أُحبهم من المُمثلين.

عدْتُ إلى البيت بعينين محمرَّتين، وكان الجميع ينتظرونني متلهفين. تناولت فنجان الشاي بصمت، ثم انتقلت إلى الوقوف أمامهم، ودون أن ترتعش ساقاي، أو أي شيء آخر بدأت روايتي.

حدث عندئذ أن شيئًا ما قد هيمن عليَّ.

وبينما أنا أروي الفيلم - مرفقة ذلك بإيماءات وحركات وتبدلات في نبرة صوتي - كنت كمن هي مصابة بازدواج الشخصية، أتحوَّل إلى كل شخصية من شخوص الفيلم. لقد كنت في مساء ذلك اليوم «بن هور» الفتيَّ، وكنت «ميسالا» شرير الفيلم، وكنت المرأتين المجذومتين اللتين

شفاهما يسوع.

وكنت يسوع نفسه.

لم أكن أروي الفيلم، بل كنت أُمثِّله، بل أكثر من ذلك: كنت أعيشه. وكان أبي وإخوتي يستمعون وينظرون إليَّ بأفواه مفتوحة.

«هذه الطفلة هي فنانة حقيقية.» هذا ما علق به أبي عندما انتهيت، وكنت مستنزفة حتى الإنهاك.

كان هو وإخوتي كالمنوَّمين.

وكانت عيونهم مغرورقة بالدموع.

(١٣)

لم تكن روايتي تلك كافية مع ذلك لنيلي اللقب؛ فقد أعلن أبي التعادل: أخي «ميرتو» وأنا كنا الأفضل. وبما أن أبي رجل ديمقراطي بقناعة، فقد قال إن هذه المسألة تُحلُّ عن طريق صناديق الاقتراع، وبالتصويت السري.

سيكون «ميرتو» هو المُرشَّح رقم ١.

وسأكون أنا المُرشَّحة رقم ٢.

قُطعت أربع قصاصات ورق متماثلة، ووزِّعت على المصوِّتين (لم يكن للمرشحين الحق في التصويت)، وكتب كل منهم رقم مرشحه ثم أودع قصاصته في سلة من الورق.

وبعد ذلك جاء عدُّ الأصوات.

صوتان لأخي وصوتان لي (خمنتُ أن أبي و«مارثيلينو» قد صوَّتا لي). وبسبب التعادل، قرر أبي القيام بما هو أكثر عدالة وعقلانية: سنذهب لمشاهدة الفيلم التالي كلانا معًا، ومَن يرويه بعد ذلك بصورة أفضل هو الفائز.

الفيلم الذي تعيَّن علينا رؤيته كان فيلمًا مكسيكيًّا مترعًا بالأغاني، عنوانه «جيتارات منتصف الليل»، ولم يكن بطلاه سوى «ميغيل آثيفيس ميخيا» و«لولا بيلتران»، وهما صوتان من أكثر الأصوات الصادحة انتشارًا في حانات الباميا. روى أخي الفيلم أولًا، وفعل ذلك بظُرفه المعهود. كان يُقلِّد بصورة خاصة اللهجة المكسيكية.

ومع ذلك، فقد كنت أنا أيضًا أُتقن محاكاة اللهجة المكسيكية في الكلام؛ فقد رأيت الكثير من الأفلام المكسيكية خلال حياتي القصيرة. وفضلًا عن روايتي للفيلم مع وصف للمشاهد وكل شيء، سرعان ما اندفعت أصدح في غناء أغنيات الفيلم، وكنت أعرف كلماتها كلها لكثرة ما سمعتُها من مكبرات الصوت في الحانات. ولأنهم لم يكونوا قد سمعوني أُغني من قبل، فقد استحوذ العجب عليهم جميعًا، ولا سيما أنني كنت أفعل ذلك بصورة جيدة.

بل إن الأمر كان مفاجئًا لي أنا نفسي.

انبهر والدي، وبخاصة حين غنيت «لستُ قطعة عملة ذهبية»، وهي إحدى أغنياته المفضلة. وهنا تجاهل ذلك الديمقراطي الاقتراع والاستفتاء واعتبرني الفائزة على الإطلاق.

«لقد قلتُ كلمتي.» هكذا زمجر أبي حين أراد «ميرتو» إبداء اعتراضه.

(١٤)

تحولتُ رسميًّا، على هذا النحو، إلى راوية الأفلام في البيت.

تخليتُ منذ ذلك اليوم عن لعب الغميضة، ولم أعد أرافق إخوتي إلى مناطق انتشار نترات ملح البارود لقتل الحراذين. وبدلًا من ذلك، خلال الأيام التي لا أذهب فيها إلى السينما - بسبب افتقاد النقود أو لأن أسماء أبطال الفيلم لا تروق لأبي - كنت أظل في البيت أجرب تنويعات في نبرة الصوت، وأقوم بتجريب تكشيرات متنوعة قبالة المرآة.

كنت أرغب في رواية الأفلام أفضل وأفضل.

وفي السينما صرت أدقق في التفاصيل التي لا يعيرها معظم المشاهدين أدنى اهتمام. إنها تفاصيل صغيرة تفيدني في إضفاء مزيد من التفخيم على روايتي للأفلام: الطريقة المبتذلة التي تطلي بها الشقراء عشيقة رجل المافيا شفتيها، وحركة ما، تكاد تكون غير ملحوظة، يقوم بها راعي البقر قبل لحظات من سحبه المسدس، وطريقة الجنود في إشعال السيجارة وهم في الخنادق؛ كيلا يرى العدو وميض إشعال عود الثقاب.

ومع مرور الوقت لم أعد أكتفي بالإيماءات والحركات وتبدلات

الصوت، بل أضفت عناصر أخرى خارجية، كما في المسرح. وكان أول ما استوليت عليه مسدسات إخوتي الخشبية، وقبعة قديمة لأبي، ومظلة عتيقة كانت قد جاءت بها أمي من الجنوب، ولم تحتج طبعًا إلى استخدامها قطّ في منطقة البامبا.

ثم بدأتُ بعد ذلك في صناعة إكسسواراتي بنفسي.

ولأنني في المدرسة كنت تلميذة جيدة في مادة الأشغال، فقد صرت أقضي الوقت في خياطة براقع وعمائم من أجل الأفلام التي عن العرب، وصناعة مراوح يدوية للإسبانيات، وتلك القبعات الكبيرة جدًّا للمكسيكيات. كنت أصنع سيوفًا صينية، وخوذات حربية، وسهام هنود، ومختلف أشكال الأقنعة. وكان أول قناع هو الذي صنعته لمحاكاة زورو. أما ما أثار فيَّ أكبر متعة مع ذلك، فكان تفصيل وصنع قبعة «شارلي شابلن» - رفيق روحي - وعكازه وشاربه.

وكنت أحتفظ بهذه الأشياء كلها في صندوق شاي، بمحاذاة الجدار الأبيض، قريبًا من متناول يدي.

(١٥)

إحدى مشاكل سينما المركز هي انقطاع شريط الفيلم بصورة متواصلة. وما إن يحدث ذلك حتى تعم المشادات الصالة؛ فالجمهور يأخذ في الصفير وضرب الأرض بأحذيته مثيرًا ضجة صاخبة، ويتهم عامل التشغيل، بينما يعمد عامل التشغيل المعروف بشدة العجرفة والنزق إلى تحميل المسؤولية لآلة العرض العتيقة.

«اذهبوا واحتجوا عند الكونيو، يا شلة البلهاء!» يصرخ فيهم غاضبًا من كوة حجرة آلات العرض. والكونيو المقصود هو متعهد دار السينما، وهذا إسباني يمتلك فضلًا عن ذلك متجر ملابس، ويشرف أيضًا على إدارة مسلخ الماشية.

وفي النهاية يكون الخاسر الوحيد هو نحن المشاهدين. فعلى الدوام، وبعد إصلاح الفيلم، يقتطعون منه عدة مشاهد، ولكن هذا الأمر لم يكن مهمًّا بالنسبة إليَّ؛ ففي البيت لم أكن أجد أية مشكلة في تصور أو اختلاق الأحداث التي اختلسوها من الفيلم.

وكان يحدث أيضًا مع الفيلمي الأعرج - كما يلقبون عامل التشغيل - أن يختلط عليه أمر بَكَرات شريط الفيلم، وبخاصة عندما يكون الرجل قد

أثقل نفسه بعدد من كؤوس الخمر، فنشاهد النهاية في منتصف الفيلم.

أو نشاهد البداية في النهاية.

أو المنتصف في البداية.

وعندئذ يتحول كل شيء إلى خليط مضطرب، ولا يفهم أحد من المشاهدين أية لعنة من الفيلم.

وفي مثل هذه الحالات، وعلى الرغم من أنها أشد تعقيدًا، لم أكن أجد صعوبة أيضًا في إعادة ترتيب القصة في ذهني، وروايتها بعد ذلك من البداية إلى النهاية مثلما يجب.

أظن أنه كانت لي، في العمق، روحُ مدبرة مكايد؛ ففضلًا عن أنني بمجرد رؤية صورتين أو ثلاث صور ملصقة على لوحة الإعلان الخارجية، ومن خلال نظرة كاهن شبقة، وتقطيب وجه طفلة، وإيماءة راهبة متواطئة، كنت أستطيع اختلاق حبكة، وتخيل قصة متكاملة، وتدبر فيلمي الخاص.

(١٦)

ومع ذلك لم تكن موهبتي تستند فقط إلى التخيل المجنون الذي أمتلكه وأتحكم فيه، ولا إلى قوة ذاكرتي الجيدة، ولا الالتفافات اللفظية التي تعلمتها من أمي ومن رواة التمثيليات الإذاعية ذوي الأصوات المبحوحة، فبدل أن أقول: «وعندئذ قبَّلها من فمها»، كنت أتلذذ أكثر قليلًا بالقول: «عندئذ أطفأ السيجارة، ثم نظر إلى عينيها، وطوقها بذراعيه المتينتين ومر بشفتيه على شفتيها»، لم يكن هنالك في هذا كله ما هو أكثر أهمية من التركيز.

لقد كان التركيز هو الأساس.

وكنت أتمتع بملكة تركيز مجربة ومحصنة: محصنة ضد الناس الذين يذهبون إلى السينما لتبادل الحديث، ومحصنة ضد صرخات الصغار، ومحصنة ضد قطع النقود ضئيلة القيمة التي يُلقي بها من الخلف أكبر الخبثاء على الرؤوس، وقد كنت محصنة بصورة خاصة ضد أولئك الصبية الداعرين الذين يكبرونني قليلًا، ممن لا يذهبون إلى السينما لمشاهدة الأفلام، وإنما من أجل التحرش بالبنات.

كان ذلك أشبه برياضة يمارسونها، ومَن لا يسمحن لهم بذلك يعاملونهن على أنهن «عنزات صغيرات»، ويذهبون إلى أخريات. يجلسون بجوار من

تكون وحدها، وبعد قليل يمسكون يدها، ثم يحاولون معانقتها وتقبيلها. ويتمادون مع أكثر البنات تصميمًا، أو أشدهن وجلًا وخوفًا. وتصل جرأة بعضهم إلى حدٍّ عصر صدورهن، أو دس أيديهم بين سيقانهن (في إحدى المرات أقدم أحد الخبثاء من الكبار - قيل إنه فعل ذلك في رهان - بخلع سروال إحدى البنات الداخلي وردي اللون، ولوَّح به ظافرًا فوق الرؤوس ثم ألقى به في الفضاء، ولأن الفيلم كان مملًّا يومذاك، راح المشاهدون يتقاذفون ذلك السروال الداخلي فيما بينهم بصخب شديد).

أنا لم أكن أسمح لهم!

حتى لو قالوا عني إنني أَشبه بذبابة ميتة! لم يكن ذلك يهمني مقدار ذرة واحدة. صحيح أنني في صِغري لعبت لعبة بابا وماما مع أصدقاء إخوتي، ولكنني كنت أذهب إلى السينما لمشاهدة الفيلم وحسب.

ولا يمكن لأي سبب أن يمنعني من التركيز عليه.

(١٧)

أكثر ما كان يتسبب لي بمواقف غير مواتية - وكبيرة - هي الأفلام التي تتضمن مشاهد خيانة زوجية؛ ففي هذه الحالات يكون عليَّ أن أستعين بكل ما في قدرتي من التخيل، وتغيير الحبكة كيلا أتسبب في إيلام أبي.

فعلى الرغم من أن سنتين قد انقضتا على هروب أمي، إلا أن الجرح لديه كان لا يزال ينزف دمًا، على حدِّ قوله هو نفسه حين يسكر. ولهذا كان علينا نحن أبناءه، فضلًا عن عدم ذكرها، أن نتجنب قول أو عمل أي شيء يستحضر ذكراها، فإذا حدث ذلك، ينتهي الأمر بأبي المسكين إلى حبس نفسه في غرفة النوم، والبكاء بكاء مُرًّا بصمت.

وهذا ما جرى في أحد الأيام، بعد رؤيتي فيلمًا إسبانيًّا؛ فمن أجل تقديم شخصية راقصة فلامنكو، لم يخطر لي شيء أفضل من ارتداء أحد الفساتين التي تركتها أمي في البيت، وهو فستان مزين بخرز أحمر ومخرمات تروق لها كثيرًا، ولم تأخذه معها بكل تأكيد لأن أبي كان قد خبأه.

لقد كان أبي يخبئه دومًا؛ ليحول دون أن ترتديه.

كان ذلك الفستان هو الزي المناسب تمامًا لتقديم شخصية الراقصة، وباستخدام دبوسين أو ثلاثة دبابيس أصبح الثوب شبه محكم على قامتي؛ فمثلما هي حال معظم بنات منطقة البامبا، ما إن بدأتُ بإكمال السنة الحادية عشرة من عمري حتى كان لي جسد نامٍ أكثر بكثير من سِني.

بعض الرجال كانوا يقولون، وبريق شبق يلمع في عيونهم: «إن ما يجعل بنات البامبا ينضجن قبل موعدهن هو ملح البارود، وليس عبثًا أنه يلقى الإطراء في جميع الأنحاء باعتباره أفضل سماد طبيعي في العالم».

في تلك الليلة، ما إن رآني أبي بفستان أمي حتى شحب لونه، وقذف كأس النبيذ باتجاه الجدار - وكانت تلك هي الكأس الوحيدة المتبقية لدينا في البيت - وأمرني بنزق أن أخلعه.

أُلغيت رواية الفيلم في ذلك اليوم، وظل أبي ثلاثة أيام مكتئبًا في غرفة النوم، يشرب نبيذه من إبريق فخاري صغير!

لم يسمح لنا حتى بأن نساعده على الاستلقاء في السرير.

وفي كل ليلة، وسط صرير كأنه صرير عزقات صدئة، كنا نشد عظام ساقيه من أجل توسيده في الفراش، وفي الصباح نطويه مجددًا من منتصفه لنُجلسه على الكرسي!

(١٨)

في تلك الأثناء بدأ الناس في المعسكر يتحدثون عني. «إنها الطفلة التي تروي أفلامًا.» هذا ما كنت أسمعه أحيانًا بينما أقف في الصف في انتظار دوري لشراء الخبز من دكان البقالة، أو عند مروري في شارع المتاجر لدى خروجي من المدرسة. ولكن شعبيتي ترسَّخت بصورة حاسمة في مساء اليوم الذي عُدت فيه من السينما ووجدت أن هناك أناسًا أكثر من المعهود ينتظرونني في البيت.

ففضلًا عن أصدقاء إخوتي - وكانوا قد تحولوا من النظر من خلال النافذة إلى الدخول والجلوس على الأرض - دعا أبي اثنين من زملائه السابقين في العمل، فحضرا للاستماع إليَّ ترافقهما زوجتاهما وأبناؤهما. وكان على إخوتي أن يتخلوا لهم عن مكانهم على المقعد الخشبي، ويجلسوا على الأرض مع أصدقائهم.

وبينما أنا أتناول فنجان الشاي وأستعد لرواية الفيلم واقفة أمام الجدار الأبيض، لم يكن أبي يكل من الترديد لمدعويه بأنه حتى لو كان الفيلم بالأبيض والأسود، ويُعرض على نصف الشاشة، فإن هذه الصغيرة يا أصحابي

تبدو كأنها ترويه بالألوان وشاشة سكوب، ويضيف قائلًا: «سوف ترون ذلك بأنفسكم».

بدت لي رواية الفيلم بوجود جمهور أكبر أمرًا فاتنًا. كنت أشعر بأنني فنانة بكل معنى الكلمة. وأظن أنني قدَّمت في ذلك اليوم إحدى أفضل رواياتي لفيلم. وقد كان الفيلم كوميديًّا موسيقيًّا، تُمثل فيه «ماريسول»، الطفلة المعجزة الإسبانية. وقد انبهر الزائرون، ليس بسبب طريقتي في الرواية والتمثيل، وإنما كذلك بتقديمي للأغنيات.

وأخيرًا كان للتصفيق في مسمعي رنة موسيقى.

منذ ذلك اليوم بدأ الحديث يدور علنًا عن موهبتي الخاصة في رواية الأفلام، وفي كل ليلة صار يتزايد عدد أصدقاء أبي المدعوين إلى البيت للاستماع إليَّ.

لرؤيتي والاستماع إليَّ!

(١٩)

وذات مساء، قال أحد المدعوين، كمن هو ساهٍ، شيئًا لم يكن قد خطر قطّ في بالنا نحن أفراد الأسرة. قال إننا نستطيع تقاضي رسم دخول. وإن ما أقوم به هو استعراض فني بكل معنى الكلمة.

«والفن يا أصدقائي له ثمن.»

وفي تلك الليلة، بعد أن تبادل أبي الحديث في الأمر حوالي ساعتين مع إخوتي الكبار - دون أن يسألوني أنا أي شيء - وجد أبي الحل الدقيق: عدم جباية رسم دخول، وإنما طلب تبرع طوعي.

قال أبي: «هذا هو الأفضل والأسلم». ولكن علينا قبل ذلك أن نعيد تأهيل غرفة المعيشة.

بدأوا العمل في اليوم التالي: حصل إخوتي على مقعد خشبي وكرسي قديم أصلحوه بمسامير ومطرقة، ووضعنا فضلًا عن ذلك صفيحتي سمن مقلوبتين، وصندوق بيرة، وكل ما ينفع للجلوس عليه، بل إننا أدخلنا الحجر الضخم المثبت عند بوابة البيت، حيث كان يجلس أبي قبل الحادث ليشرب زجاجة نبيذه.

وبدأ الأمر يمضي على ما يرام.

كانت «الصالة» تمتلئ بالأطفال والبالغين، رجال ونساء. كان هنالك من يذهبون لرؤية الفيلم في السينما، ثم يأتون إلى البيت ليسمعوا روايته، ويخرجون بعد ذلك وهم يقولون إن الفيلم الذي رويته أفضل من ذاك الذي شاهدوه.

ولشدة الحماسة التي بثتها فيَّ شعبيتي، صرت أُهمل واجباتي المدرسية، وتخليت عن قراءة القصص، وركزت جُل جهودي على قراءة مجلة «إيكران» (عرفت أن «إيكران» تعني شاشة السينما). وإلى جانب قراءة كل عدد جديد من المجلة يصل إلى المكتبة العامة، كنت أقرأ كومة من الأعداد القديمة التي أخرجتها لي المكتبة من القبو. وكنت أهتم بصورة خاصة ببابين محددين في المجلة: «العروض الجديدة»، و«إشاعات هوليودية». كانت لديَّ رغبة في معرفة كل شيء عن الأفلام، وعن الممثلات اللاتي تُزَين صورهن غلاف المجلة.

لقد كنت أشعر أنني واحدة منهن.

وقد كنت أشعر بذلك إلى حدٍّ خطر لي معه أن أبحث عن اسم مستعار؛ فأنا فنانة وأستحق أن يكون لي اسمٌ فنيٌّ.

اسم يتناسب مع ما أفعله طبعًا.

(٢٠)

اكتشفت من خلال مجلة «إيكران» أن لمعظم الفنانين والفنانات أسماء مستعارة؛ لأن أسماءهم، الأسماء الحقيقية، قبيحة جدًّا مثل اسمي، بل ربما أكثر قبحًا. ومثال الأمثال على ذلك هو اسم «بولا نِغري» ممثلة السينما الصامتة المشهورة؛ لقد كان اسمها يروق لي على الدوام، كنت أرى أنه الاسم المناسب بالضبط لممثلة، ولكنني في ذات يوم سيِّئ الطالع اكتشفتُ بهلع أنه اسمها المستعار، وأن اسمها الحقيقي هو «أبولونيا تشافوليز». قلتُ لنفسي بذهول: «لا يمكن لهذا أن يكون صحيحًا!»؛ فبمثل هذا الاسم ما كان يمكن لتلك المسكينة أن تمتلك من الظرافة ما يكفي للتلاعب برموشها.

خيبة أملي الأخرى كانت حين عرفت أن «أنطوني كوين»، وهو أحد ممثليَّ المفضَّلين، يُدعى في الحقيقة «أنطونيو كينيونيس»!

يا لخيبة الأمل!

وقد أخبرني أحدهم فيما بعد أن الفنانين في جميع المجالات يستخدمون أسماء مستعارة؛ ففضلًا عن الشعراء مثل «بابلو نيرودا» واسمه الحقيقي «نيفتالي ريِيس»، و«غابرييلا ميسترال» واسمها الحقيقي «لوثيلا غودوي»، حتى المغنين يستخدمون أسماء مستعارة، وبخاصة أولئك الذين يسمونهم

مغني «الموجة الجديدة»، والذين صرنا نسمعهم في كل وقت من كل محطات الإذاعة في البلاد.

وكنموذج منهم قدموا لي ثلاثة أمثلة:

شخص يُدعى «باتريسيو نونيث» سمَّى نفسه «بات هنري»؛ «بات هنري وشياطينه الزرق». ومغن آخر يُدعى «خابيير أستوديّو ثابتا» تحوَّل اسمه إلى «داني تشيليان». وتلميذة مدرسة تُدعى «غلاديس لوكافيتشي» تحوَّلت إلى نجمة كبيرة في عالم الغناء والمسلسلات المصوَّرة تحت الاسم الفني «سوزي فيكي».

وهكذا، وكيلا أكون أقل من هؤلاء، بدأت أبحث عن اسم فني مستعار. وبعد تفكير طويل، وكثير من اختراع الأسماء وتوليفها - بعضها استخرجته من مجلة «إيكران»، وأخرى من سجل التقويم المقدس، وحتى من الكتاب المقدس الذي في البيت، وهو الميراث الوحيد عن جدي لأبي - لم يرضني أي اسم منها، إلى أن سمعت ذات مساء الجارة المتنورة في الحي تقول وهي تتحدث إلى أبي: «ابنتك تبدو أشبه بحورية وهي تروي أفلامًا يا جارنا، وعصاها السحرية هي الكلمة، بها تنقلنا جميعًا من عالم إلى آخر».

عندئذ خطر لي الاسم. عندئذ أشرق طابقي العُلوي، مثلما كان يقول أخي الأكبر.

سأُسمي نفسي «الحورية ديلسين».

ردَّدت الاسم عدة مرات وبدا لي أن له وقعًا جيدًا، بل أحسست بأنه يخلف في الفم مذاقًا فرنسيًّا. وأفضل ما فيه أنه لا وجود لأي حرف ميم فيه!

(٢١)

وهكذا، بين عشية وضحاها، تحوَّلت غرفة المعيشة إلى ما يُشبه صالة سينما محكية صغيرة.

قسَّمنا الغرفة إلى قسمين، مثلما هي الحال في سينما المركز: في الخلف، إلى جانب أريكة أبي ومقعد إخوتي، رتَّبنا جميع الأشياء التي يمكن استخدامها للجلوس عليها، وكان هذا المكان هو المقصورة الخاصة. أما الصالة فكانت القسم الأمامي، حيث يجلس الجميع، وبخاصة الأطفال، على الأرض. أما النافذة التي كانت تعتبر البلكون، فقد ألغيت.

لقد أُغلقت.

وضِع لها مزلاج.

ولم نفعل ذلك للحيلولة دون أن يراني أو يسمعني أحد دون أن يُقدم تبرعًا وحسب، وإنما لأن بعض صبية الحي الآخر - وكان إخوتي يخوضون معهم على الدوام مشاجرات تراشق بالحجارة - بدأوا يتوافدون في مواعيد حكايتي للأفلام، ويأخذون برمي أشياء من النافذة: لبان، بصاق، بلونات مملوءة بالماء، أشواك يابسة، بل إنهم ألقوا في إحدى المرات جرذًا حيًّا.

علقنا عند الباب سبورة نكتب عليها يوميًّا عنوان الفيلم الذي سيُحكى، وموعد بدء العرض. وكنا نضيف في الجزء السفلي، وبخط أصغر: «يُمنع دخول الكلاب».

كان أبي هو المكلَّف بتلقي التبرعات؛ يجلس على كرسيه ذي العجلات، ويستقر عند الباب وعلبة حذاء على ركبتيه. لم تكن تبرعات الكبار تتجاوز الخمسة بيزوات، وتبرعات الصغار بيزو واحدًا. بينما كانت تعريفة الدخول إلى السينما خمسين بيزو.

وقام أخي الأكبر بدور البواب، وتولى الإخوة الآخرون توزيع الناس على أمكنة جلوسهم.

ومن أجل توضيح كم كانت أمورنا تسير على أحسن وجه، يكفي القول إن الأطفال الذين ليس لديهم بيزو واحد كانوا يتناوبون على الثقوب التي في ألواح الصفيح كي يروني. أضف إلى ذلك أن أحد باعة الترهات في السينما كان يستغل الوقت ما بين انتهاء عرض ما بعد الظهر والعرض الليلي، وهو الوقت الذي أُقدِّم فيه عرضي، فيأتي ليقف خارج البيت.

وقد أطلق أخي «ميرتو» تسمية العرض «المسائي - الليلي» على موعد عرضي.

(٢٢)

في الأيام التي لم يكن بمقدوري الذهاب إلى السينما لأنهم يقدمون فيها «عرضًا خاصًّا لمن هم فوق الحادية والعشرين من العمر»، لم أكن أجد أي مشكلة كبيرة؛ فبما أنني أتمتع بذاكرة يمكن تسميتها فيلمية، كنت أكرر رواية أكثر أفلام الأسبوع نجاحًا. وفي مثل تلك الأيام، حيث يذهب البالغون جميعهم إلى السينما، كان البيت يمتلئ بالصغار فقط وبعض العجائز اللاتي يجئن وهن يتحدثن بالسوء عن «تلك الأفلام القذرة» التي يأتي بها تاجر الأفلام.

ومع ذلك، فإن أفضل أيامنا كانت تلك التي لا يُقدَّم فيها عرض في سينما المركز. وقد كان ذلك يحدث لأسباب مختلفة:

لأن الفيلم لم يصل.

لأن جهاز العرض معطل.

لأن عارض الأفلام الأعرج مريض.

وهذا السبب الأخير يعني أن ذلك الرجل القصير يكون مخمورًا إلى حدٍّ لا يمكن معه نقله إلى صالة السينما ولو على حمالة، مثلما حدث وجاءوا به ذات مرة، كما روى لنا أبي.

كان ذلك في يوم قدَّموا فيه فيلمًا لـ«جورج نغريت». وكانت صالة السينما ممتلئة بالرواد، ولكن عامل التشغيل لم يأتِ. وقال أحدهم إنه رآه ينام مخمورًا على إحدى مناضد الحانة. عندئذ ذهب بعض الشبان المتضامنين مع متعهد صالة السينما للبحث عنه، ووضعوه في عربة يدوية وجاءوا به عبر الشارع الرئيسي. وحين وصلوا إلى السينما، حملوه وصعدوا به إلى حجرة العرض. وهناك أيقظوه بصفعات على خديه، وبللوا وجهه بالماء، وأجبروه على عرض الفيلم.

وعندما لم تكن السينما تفتح أبوابها، كنتُ أختار رواية فيلم مكسيكي، من تلك الأفلام التي تكثر فيها الأغنيات؛ لأنها أكثر الأفلام حظوة بإعجاب الناس. وفي تلك المناسبات كان البيت يمتلئ بحيث لا يتبقى سوى حيِّز ضيق للحركة.

هذه العروض التي تغص بالجمهور كانت بالنسبة إليَّ هي الأفضل. وكان أبي يُعلِّق بالقول إن حالتي هي نوع معكوس من رهاب المنصة. شيء أشبه بـ«نشوة المنصة»، كما كان يقول ضاحكًا. ولم يكن بعيدًا عن الصواب في ذلك؛ فكلما كان عدد من يسمعونني ويرونني أكبر، كانت روايتي للفيلم أفضل.

وكم كنت أستمتع بتصفيق الجمهور عند انتهاء روايتي للفيلم!

وكنت في تلك الأثناء قد بدأت أحيي الجمهور مثلما تفعل ممثلات المسرح اللاتي لم أكن قد رأيتهن إلا في الأفلام طبعًا؛ فعندما أنتهي من روايتي، وبينما ينطلق الجمهور في التصفيق، كنت أدخل راكضة إلى الحجرة المجاورة، فأنتظر للحظات، أتنفس خلالها بعمق، وأعود إلى الخروج وتقديم التحية بتلك الانحناءات بنصف الجسم التي أستمتع كثيرًا بأدائها.

وكان الجمهور يضطرني في بعض الأحيان إلى الخروج للتحية ثلاث مرات.

(٢٣)

بعد تلك العروض، يظل دوي التصفيق يتردد في أعماقي طيلة الليل كله بطريقة لا أجد معها إلى النوم سبيلًا. وفي أثناء أرقي كنت أفكر في أمي، وأبكي بصمت تحت الدثار؛ فبعد أن هجرتنا، ومثلما بدأ أخي يتلعثم، امتلأت أنا بالقمل الأبيض، والجارات كن يقلن إن هذا النوع من القمل يخرج عند الحزن، ولأن حزني كان على أمي، فإنني بدأت آكل القمل بدافع حبي الخالص لها!

هكذا كنت أحبها!

هكذا كنت أشتاق إليها!

وكنت أقول لنفسي: يا للفخر الذي كانت ستشعر به الآن لو أنها ترى كيف يستمع إليَّ الناس ويصفقون لي!

أتراهم يصفقون لها بعد تقديم رقصاتها مثلما يصفقون لي؟ أتكون قد بدَّلت اسمها باسم آخر أكثر فنية؟ أما زالت تستخدم تلك المناديل الحريرية شديدة البهاء؟ كنت أختنق تحت الأغطية وأنا أتخيلها ترقص شبه عارية، على منصة مزينة بأضواء ملونة تشتعل وتنطفئ! ففي تلك الأيام، ومن خلال

نساء كن يتبادلن الحديث وهن ينتظرن دورهن لشراء الخبز، علمت أن أمي قد ذهبت للعمل راقصة في عروض منوعات.

يقال: «إن البلهاء ذات الرأس الفارغ «ماغنوليا» قد أغرمت بمدير الفرقة المسرحية التي مرت بالمكتب، وإنه قد أخذها معه إلى العاصمة بوعد أن يحولها إلى نجمة سينمائية». ما لم أفهمه جيدًا هو ما قالته إحداهن، وهي تغمز بعينها للأخريات، بأن عددًا من الرجال المترملين في المعسكر المنجمي لم يعد لهم إلا البكاء بعد هروبها، ولكن أكثر الجميع حزنًا هو السيد المدير الأجنبي.

كان عمر أمي ستة وعشرين عامًا حين ذهبت. وعلى الرغم من أنها قد أنجبت خمسة أبناء، خلال خمس سنوات متتالية - أولهم وهي في الرابعة عشرة - إلا أنها كانت تتمتع بمظهر تُحسد عليه، وهذا أمر أتذكره جيدًا؛ لأنني رأيتها مرات كثيرة، حين نكون وحدنا في البيت، ترقص بملابسها الداخلية قبالة المرآة.

ولكن ملامح وجهها آخذة مع ذلك في التلاشي من ذاكرتي؛ فوجهها يُمحى كما يُمحى وجه ممثلة توقفت عن الظهور في السينما زمنًا طويلًا.

والشيء الآخر الذي كان يحدث لي هو أنني، لكثرة ما شاهدت من الأفلام ورويتها، صرت أخلط بينها وبين الواقع! كنت أتكلَّف مشقة في تذكر إذا ما كنت قد عشت هذا الحدث أو ذاك، أم إنني رأيته معروضًا على الشاشة، أم إنني حلمت به! إذ كان يحدث لي أن أخلط بين أحلامي نفسها فيما بعد ومشاهد من الأفلام.

وكان الشيء نفسه يحدث مع أجمل ذكرياتي عن أمي؛ فصور اللحظات السعيدة القليلة التي عشتها إلى جانبها راحت تخفت في ذاكرتي وتتلاشى، بصورة لا رجعة عنها، كمشاهد من فيلم قديم!

فيلم بالأبيض والأسود!

وصامت!


Twitter: @ketab_n

(٢٤)

لقد قرأت في أحد الأيام جملة - لا بد أنها لكاتب مشهور - تقول شيئًا بمعنى أن «الحياة مصنوعة من مادة الأحلام نفسها». أما أنا فأقول: «إن الحياة يمكن لها أن تكون مصنوعة بالضبط من مادة الأفلام نفسها».

إن رواية فيلم هي مثل رواية حلم!

ورواية حياة هي مثل رواية حلم أو فيلم!


Twitter: @ketab_n

(٢٥)

وفي أثناء ذلك كانت شهرتي تتزايد باضطراد. وقد تنامى ذلك إلى درجة أن صار بعض الناس يدعونني لأروي لهم أفلامًا في بيوتهم. ومَن كانوا يفعلون ذلك بصورة خاصة هم من الموظفين والتجار، وقد كانوا أوسع الناس نفوذًا في المركز. وبما أن النقود التي راحت تتجمع حينئذ من عروضي صارت تسمح لنا ببعض أمور الترف الصغيرة، مثل شراء مشروبات غازية لتناولها مع الغداء، وإرسالي إلى السينما بصورة يومية عمليًّا - وإن كانت زجاجات نبيذ أبي، وقد تضاعفت بصورة ملحوظة من ناحية الكم والنوعية، هي التي راحت تستحوذ على معظم النقود المكتسبة - حينئذ لست أدري لمن خطرت الفكرة في طلب طباعة بطاقات تعريف شخصية لي.

وكانت بطاقات مُذهبة الإطار، ومكتوبة بحروف مترعة بالزخرف والبهرجة:

الحورية ديلسين
راوية أفلام

وبهذا بدأت نكبتي.


Twitter: @ketab_n

(٢٦)

أول من تعاقدت معي لأروي لها أفلامًا هي «دونيا ميرثيديس موراليس»، الخياطة التي تسكن قبالة الساحة، وهي إحدى أطيب النساء اللاتي عرفتهن في حياتي. أرسلت السيدة «ميرثيديس» في طلبي كي أروي لها «بائعة البنفسج»، وهذا فيلم من بطولة «ساريتا مونتيل» و«راف فايّوتي»، وكان قد عُرض في السينما قبل أسبوع واحد فقط، ولكنها لم تستطع مشاهدة الفيلم؛ لأنها كانت قد نزلت إلى الميناء لتشتري أقمشة وأزرارًا.

كنت أتذكر الفيلم تمامًا، بل إنني كنت أحفظ الأغنية التي تمنح الشريط السينمائي اسمه عن ظهر قلب؛ لأنها كانت تُبث طوال الوقت من المذياع. أضف إلى ذلك أنني في مساء اليوم الذي غنيت فيه الأغنية في البيت تلقيت أطول تصفيق أتلقاه في مهنتي الناشئة.

وهكذا انطلقت في ذلك اليوم، بعد تناول الغداء، إلى بيت الخياطة. وقد ساعدني أخي «ميرتو»، بأمر من أبي، في حمل صندوق الشاي وفيه الإكسسوارات والملابس الإسبانية كلها. لقد افتُتنت المرأة بروايتي للفيلم، وكانت سخية جدًّا معي؛ ففضلًا عن أنها أهدت إليَّ بلوزة من التفتا، بنفسجية

اللون وذات كشكشات مخرمة، دفعت لي قدر ما نجمعه في يومين من التبرعات في البيت.

ومنذ ذلك الحين صاروا يستدعونني بكثرة إلى بيوت أخرى.

وكانت تلك الدعوات في معظم الحالات لرواية أفلام لمُسنات أو مسنين مرضى، لا يستطيعون الذهاب إلى السينما. المشكلة أن بعضهم كانوا يطلبون مني رواية أفلام قديمة جدًّا، أو أفلام لم أكن قد شاهدتها: بالنسبة إلى الأفلام القديمة لم تكن لديَّ مشكلة، فانطلاقًا من القليل الذي أتذكره منها والكثير مما أضيفه من عندي، كنت أتمكن من الخروج من المأزق على أحسن وجه. وقد تجرَّأتُ مرة واحدة على رواية فيلم لم أكن قد شاهدته، وكان ذلك حين استدعتني «دونيا فيليبيرتا»، صاحبة محل الحلويات الوحيدة في المكتب.

تلك العجوز التي أوغلت في الجنون، على حدّ قول الناس، كانت تنتظر الموت، وتريد أن أروي لها فيلمًا للممثلة «ليبرتاد لاماركي». الفيلم بعنوان «قبلات سحرية»، وقد قالت «دونيا فيليبيرتا» وهي تُظهر بياض عينيها إن الفيلم يعيد إلى ذاكرتها غرامًا لا يُنسى. وأخبرتني أن أكثر مشهد تتذكره هو مشهد تستحم فيه «لاماركي» في بحيرة بديعة ذات مياه زرقاء (على الرغم من أن الأفلام في تلك الأزمنة كانت بالأبيض والأسود، إلا أنها قالت: ذات مياه زرقاء)، وتغني أغنية فاتنة عنوانها «مع العصفور الصغير».

سألتني: «هل شاهدت هذا الفيلم يا صغيرتي؟».

كذبت عليها، قلت لها: «أجل، ولكنني لا أتذكره بصورة جيدة؛ لأنني كنت صغيرة جدًّا عندما شاهدت الفيلم، ولكن إذا ما أنعشتِ ذاكرتي قليلًا...» عندئذ لم تكتفِ العجوز بأن تقدم لي ملخصًا مطولًا للفيلم، مع تشكيلة

متنوعة من تفاصيل الملابس والمناظر، بل أخبرتني بكلمات أغنية «مع العصفور الصغير» كاملة. ومن هذا كله ولَّفت قصة بأقصى سرعة، وظللت أروي لها الفيلم حتى استغرقت في النوم.

«دونيا فيليبيرتا» التي كانت في الثانية والتسعين من العمر، وقد ترمَّلت ثلاث مرات، توفيت بعد يومين من ذهابي إلى بيتها. وكان أفراد أسرتها يروون بتندر، بعد الجنازة، أن الجدة «فيلي»، كما يسمونها، قد قالت لهم إن الفيلم الذي روته لها البنت الصغيرة «لا يُشبه بأي حال» الفيلم الذي كانت قد شاهدته، ولكنه أعجبها كثيرًا على أي حال، بل أكثر من الفيلم الآخر.

وقد قالت لهم باسمة: «الفيلم الآخر لم يكد يستمر أكثر من ساعة وربع الساعة، بينما روت لي هذه الطفلة فيلمًا مدته تقارب الساعتين».

وقال أقرباؤها إنها ماتت سعيدة!


Twitter: @ketab_n

(٢٧)

كنت أنجز طلبات الأفلام في البيوت في ساعة القيلولة؛ لأني كنت أذهب إلى المدرسة في الصباح، وأذهب عند العصر إلى السينما. وكان إخوتي يتناوبون، وسط نوبات تذمر وعصبية، وبإلحاح من أبي، على مساعدتي في نقل صندوق الشاي، فيوصلونني إلى البيت الذي أُستدعى إليه ويذهبون للعب. يتركونني على أن يعودوا لأخذي بعد ساعة. ومدة الساعة هي متوسط الوقت الذي أحتاج إليه لرواية أفلامي. ولكنهم يظلون منهمكين في اللعب دومًا، ويكون عليَّ أن أتدبر أمر العودة وحدي. وهذا ما حدث في ذلك اليوم الغائم الذي ذهبت فيه لرواية فيلم رعاة بقر لمُرابي المركز.


Twitter: @ketab_n

(٢٨)

كان معسكرنا المنجمي أحد أشد المعسكرات بؤسًا في الناحية. لم يكن لدى الناس ما يرونه أو يفعلونه في أمسيات منطقة البامبا الطويلة؛ فلا وجود هناك لصالة موسيقية حيث يمكن الذهاب للرقص، ولا وجود لجوقة موسيقية تعزف مارشات عسكرية في عطلات نهاية الأسبوع على منصة الساحة العامة، بل لم يكن لدينا ولو يومَ قطارٍ، وهو يوم حفلة كبرى في المراكز التي توجد فيها محطة قطارات.

لم يبقَ لنا سوى السينما.

ولكن أجر العمل لم يكن فيه ما يكفي لشراء بطاقة الدخول دائمًا؛ فالجميع يعيشون بالدَّين، ومن أجل الحصول على بعض النقود قبل أيام دفع الأجور، كان معظم الناس يلجئون إلى رهن بطاقتهم عند المُرابي.

«دون نولاسكو» هو اسم المُرابي.

كان رجلًا طويل القامة، بارز العظام، نفور مثل كلب صحراء، وقد توصَّل على المدى الطويل إلى أن يكون أكثر رجل مكروه من الجميع في المركز؛ ليس لأنه مرابٍ وحسب، وإنما لأنه يعمل كذلك حارسًا في

نزل العازبين الوحيد في المركز. وهناك يجب عليه التأكد من أن الرجال لا يُدخلون خمورًا أو نساء إلى قمراتهم. وقد كان «دون نولاسكو» صارمًا في هذا الشأن كصرامته في جباية ديونه.

لم يكن بالإمكان تمرير أي شيء في غفلة عن عينيه اللتين كعيني بوم.

وفي يوم الخميس، وهو يوم دفع الأجور، كان من المألوف رؤية زوجات العمال يتوسلن إليه أن يدفعن له نصف الدَّين الآن: «نرجوك يا «دون نولاسكو»، سندفع الباقي في الأسبوع التالي، ما رأيك؟ انظر، عليَّ أن أشتري حليبًا لطفلتي الرضيعة!».

ولكن، لم تكن ثمة طريقة، فالرجل متصلب وعديم الإحساس مثل قشرة طبقة من ملح البارود.

لقد رافقت أمي مرتين من أجل رهن بطاقة أبي، ورأيت وجه الرجل الذي لا يمكن تفسيره.

كان يبدو حقًا كأنه وجه مصنوع من عظام.

لم يكن هناك من رآه يبتسم قطّ.

(٢٩)

الرجل يعيش في بيت مظلم وصامت، في الشارع الأخير من جهة الغرب. وكان اليوم أحدًا عندما ذهبت لأروي له الفيلم.

كان الجو غائمًا. وكانت الشوارع، مثلما هي العادة في ساعة القيلولة، تبدو مقفرة، بل إنها بدت أكثر وحشة في ذلك اليوم بالذات؛ إذ كانت تجري في ملعب كرة القدم، خارج المعسكر، المباراة النهائية في البطولة المحلية. وقد كانت كرة القدم هي طوق النجاة الآخر للناس من ضجر سهب البامبا.

عندما وصلت إلى بيته ومعي أخي «مانويل» (وقد أمره أبي بأن يأتي من ملعب كرة القدم كي يساعدني)، خرج المُرابي إلى الباب، نظر إليَّ بتمعن، ثم سأل عن سبب إحضار الصندوق. وعندما أوضحت له، قال باقتضاب: «لا أريد ملابس تنكرية».

بدا «مانويل» في غاية السعادة، ورجع فورًا بالصندوق إلى البيت، ومن هناك ذهب بأقصى سرعة إلى ملعب كرة القدم. ظننت في البدء أن ذلك السيد يرغب في تخيل الشخصيات على هواه. وهو ما بدا لي

جيدًا، ولكنني لمحت بعد ذلك أثرًا من الخبث في موقفه، ومع ذلك لم أعر اهتمامًا لحدسي. فكرتُ في أن هاجسي ذاك لا بد أن يكون من تأثير مشاهدتي لكثير من الأفلام.

كان المُرابي يعيش وحيدًا. وكانت ستارة النافذة مغلقة، والبيت يبدو في شبه ظلمة. وقد لفت انتباهي مدى اضطراب حجرة المعيشة وفوضاها: كثير من الأثاث القديم والصناديق المغطاة بالغبار. ربما لم يكن في بيتنا أثاث يُذكر، ولكنه كان أكثر إضاءة بكثير.

كانت الرفوف مترعة بأجهزة يأتي الناس لرهنها: أجهزة مذياع، آلات تصوير، أطقم خزف، قطع أقمشة كشمير إنجليزية. وتخيلت أن في الصناديق مئات ساعات اليد والخواتم الذهبية. وفي زاوية صوان للسفرة، تُرى مربوطة، بشريط من المطاط، حزمةٌ بطاقات الأجور التي رهنها الناس. جميع مَن في المعسكر يعرفون أن المُرابي شديد الحرص والحذر، إلى حدّ أنه يحمل معه البطاقات أينما ذهب، حتى عند ذهابه إلى عمله في مركز الحراسة، فقد يحدث أن تسقط على أحد العمال نقود من السماء ويرغب في استرداد بطاقته، فالرجل يتلقى نقودًا طوال أربع وعشرين ساعة في اليوم.

جلس «دون نولاسكو» على الصوفة. وقفت أنا قبالته وبدأت رواية الفيلم. كان قد طلب مني فيلمًا لـ«جون واين»، وهو فيلم عُرض عندنا منذ وقت قريب. شعرت لأول مرة بأن ساقيَّ ترتعشان، ولأول مرة لم أجد الكلمات لبدء روايتي. ندمت لأني تركت أخي ينصرف.

كنت أشعر بالخوف؛ فالرجل هو أشبه بشرير القرية!

وما كدت أبدأ في رواية الفيلم حتى قاطعني بجفاء ليقول لي إنه لا يسمع جيدًا بإحدى أذنيه، وطلبَ مني أن أقترب أكثر، ثم قال لي بعد ذلك إنه من الأفضل أن أروي له الفيلم وأنا جالسة على ركبتيه.

قال ذلك بنبرة حاسمة لم أتجرأ معها على عدم الانصياع.

وجالسة على ركبتيه العظميتين، بدأتُ الرواية من جديد. كان الرجل ينظر إليَّ بطريقة غريبة. وقد انتبهت عندئذ إلى أنه لا يولي روايتي للفيلم أدنى اهتمام، ولكن الوقت كان قد فات؛ ففي تلك اللحظات بدأ المُرابي يفعل بي ما فعله. حوّل الرعب جسدي إلى هلام ولم أستطع عمل أي شيء. فعل الرجل ما شاءه بي، وبخاصة من الخصر إلى أسفل!

ومع أنني كنت قد فعلت بعض الأشياء مع بعض أصدقاء إخوتي في الزمن الذي كنت أرافقهم فيه إلى حفر منجم ملح البارود القديم، إلا أن ذلك كله لم يكن أكثر من لعب أطفال. أما الآن فأحسست كما لو أنني قد مُزقت من الداخل.

خرجت من هناك كمن أصابها مس.

وبينما أنا أمشي عائدة إلى البيت، كمن تخطو على إسفنج، رحت أفلت حفنة القطع النقدية التي وضعها الرجل قسرًا في يدي قبل أن يتركني أنصرف. اجتاح روحي إحساسٍ غير متناهٍ بالعار! كنت شعرت بأنني دنسة وغير جديرة بأن أتلقى حتى الهواء الذي أتنفسه.

وحين انعطفت عند ناصية بيتنا، لمحت أبي جالسًا أمام الباب وحاولت أن أداري حالتي بأفضل طريقة ممكنة؛ لم أرغب في رؤيته يعاني مزيدًا فوق معاناته. كان أبي العجوز المسكين يغفو ورأسه متدلٍّ على صدره.

لقد تركه إخوتي هناك، ترافقه زجاجة نبيذه. وقفت أتأمله لحظات وهو غاطس في كرسيه ذي العجلات، عاجزًا بالكامل من خصره إلى أسفل. عندئذ أدركت، بصورة مباغتة ومبهمة، السبب الخفي الذي دفع أمي إلى هجره!

وتذكرت فوق ذلك أنها حين ذهبت كانت السماء غائمة!

(٣٠)

ذهبت بعد الظهر إلى السينما كالمعتاد. وبعد ذلك، في البيت، رويت الفيلم بسرعة ودون أي قدر من الحماسة. قلت إن رأسي يؤلمني. ولحسن الحظ أن الجمهور بكامله تقريبًا كان من الصغار، وكانت المطالب ضئيلة. بعد ذلك اقتدت أخي الأكبر إلى الفناء، وبينما نحن نجلس على عارضة خشبية، أخبرته بما حدث.

وقد فوجئت بأنني رويت له ذلك دون أن أبكي. كنتُ أشعر بسكينة تُبقيني كالمُعلَّقة في الهواء. وقد استمع هو إلى قصتي كلها بصمت.

لم يقل كلمة واحدة، بل لم يكد يرف له رمش.

وفي النهاية - وكان يلفني شعور غامض بالذنب - راودني إحساس بأنه ما كان عليَّ أن أخبره بالأمر.


Twitter: @ketab_n

(٣١)

بعد أسبوعين من ذلك، في صباح ذات يوم خميس، وهو يوم دفع الأجور وتسديد الديون، عثروا على المُرابي ميتًا في حجرة حراسته. كان مُلقى على الأرضية الخشبية المغسولة ببترول، والبطاقات كلها مبعثرة على الجثة. لقد قُتل ضربًا بذراع رفش.

رجال الدرك الأربعة الذين يشكلون قوة المفرزة - وهم بدينون ومترهلون بسبب قلة النشاط - وجدوا أخيرًا ما يشغلهم؛ ففضلًا عن تسميم الكلاب الضالة والتجوال في الشوارع بفتور وهم يعقدون أيديهم وراء ظهورهم، كان العمل الشرطي الوحيد الذي يقومون به هو اعتقالهم في عطلة نهاية كل أسبوع اثنين من السكارى ليكنسوا لهم مقر المفرزة وينظفوا مؤخرات خيولهم.

كان أول المشتبه فيهم هم أصحاب البطاقات المرهونة. أخضعهم رجال الدرك للاستجواب واحدًا واحدًا، وبخاصة زوجا امرأتين كانتا تسعيان لاسترداد بطاقتيهما - وهو ما يعرفه جميع مَن في المعسكر - وتذهبان متسللتين خفية إلى بيت المُرابي في الليل.

ولكن أُطلق سراحهم جميعًا وخرجوا بريئين بلا أية شائبة.

ولأنه لم يكن للميت أقرباء معروفون، سرعان ما نسي سكان المعسكر المسألة بعد مرور وقت قصير، ولم يهتم أحد ببقاء قضية مقتله بلا حل، بل على العكس، فقد كان هناك كثيرون لا يستطيعون إخفاء السعادة عن وجوههم؛ لأن ديون كل منهم اعتُبرت ملغاة بموته. ويقال إن رجال الدرك أنفسهم كانوا يتجولون والضحكة تملأ وجوههم؛ لأن «دون نولاسكو» كان يطوقهم بالديون أيضًا.

أضف إلى ذلك كله أنه أُعلن في السينما، في تلك الأيام بالذات، عن عرض فيلم الوصايا العشر.

ولم يكن هناك من يتحدث في أي موضوع آخر.

(٣٢)

مرَّ الوقت متمهلًا وبطيئًا، مثلما يمر، على ما أظن، في صحارى العالم كله. كنت على وشك إكمال السنة الثالثة عشرة من عمري، وكنت ألبس تنورة قصيرة (تنورة الميني جب التي كانت قد ابتكرتها «ماري كوين» للتو)، وأواصل رواية أفلامي.

كان جمهوري في ازدياد متواصل.

هنالك أطفال ممن يقدم لهم آباؤهم نقودًا للذهاب إلى السينما، ولكنهم يفضلون المجيء إلى بيتي، حيث يقدمون تبرعًا ضئيلًا وينفقون ما يتبقى لديهم في شراء الحلوى. وهنالك كثيرون من الكبار الأميين ممن يختارون سماع الفيلم حسب روايتي بدل الذهاب إلى السينما وعدم فهم أي شيء حين يكون الفيلم «مترجمًا كتابة». واكتشفت كذلك أن بعض الناس يأتون لسماعي ليس لأنهم لا يستطيعون دفع ثمن بطاقة الدخول إلى السينما، وإنما لأن ما يروق لهم في الواقع هو أن تُروى لهم الأفلام.

وكان البعض يقولون إنني جيدة جدًّا في تشخيص الشخصيات بحيث يمكنني أن أنتقل، في طرفة عين، من براءة «بياض الثلج» إلى شراسة أسد مترو «غولدن ماير»، وإن الاستماع إليَّ أشبه بالاستماع إلى تلك

التمثيليات الإذاعية التي تُبث يومًا فيومًا من العاصمة؛ ذلك أنني فضلًا عن محاكاة الأصوات وتبديل الوجوه، كنت قادرة على التشويق وإبقاء جمهور المستمعين مندهشًا.

اكتشفت في ذلك الحين أن الناس جميعًا يرغبون في أن تُروى لهم قصص، وأنهم يريدون الخروج لحظات من الواقع والعيش في تلك العوالم الخيالية التي تقدمها الأفلام والتمثيليات الإذاعية والروايات، بل إنهم يرغبون في أن تُروى لهم أكاذيب، على أن تُروى تلك الأكاذيب بصورة جيدة. ومن هنا يتكشف سر نجاح المحتالين والنصابين الماهرين في الكلام.

ودون أن أفكر مجرد تفكير في الأمر، تحوَّلتُ في نظرهم إلى صانعة أوهام، إلى نوع من الحورية، كما قالت جارتنا؛ فقد كانت روايتي للأفلام تُخرجهم من ذلك العدم الفظ الذي تعنيه الصحراء، وتنقلهم، ولو لوقت قصير، إلى عوالم بديعة مليئة بالحب والأحلام والمغامرات. وبدلًا من أن يروا تلك العوالم معكوسة على شاشة سينما، كان بإمكان كل واحد منهم أن يتخيلها على هواه.

لقد قرأت ذات يوم في مكان ما، أو ربما شاهدت في فيلم، أنه عندما كان الألمان ينقلون اليهود في عربات القطارات المغلقة المخصصة للماشية - ليس لها سوى فتحة واحدة في الجزء العلوي كي يدخل إليها الهواء - وبينما هم يمضون عبر الحقول الشذية ووسط الأعشاب الغضة، كانوا يختارون أفضل راوٍ بينهم، ويجعلونه يصعد فوق أكتافهم، ويرفعونه حتى الفتحة العلوية كي يصف لهم المشهد في الخارج ويروي لهم ما يراه مع مرور القطار.

إنني واثقة الآن من أنه لا بد أن كثيرين منهم كانوا يُفضلون تخيل تلك الروائع التي يرويها زميلهم، وأن يتمتعوا هم أنفسهم بامتياز النظر من تلك الفتحة.

(٣٢)

بعد شهور من ذلك مات أبي!

لفظ أنفاسه الأخيرة مساء ذات يوم في البيت، وهو جالس على كرسيه ذي العجلات، بينما كنتُ أروي فيلمًا مكسيكيًّا. وأظن أنّ ذلك قد حدث بالضبط في اللحظة التي كنت أغني أغنية «هي»، أروع أغنيات «خوسيه ألفريدو خيمنيث».

ما كان بمقدوري أن أعرف أن هذه الأغنية تستحضر إلى ذاكرته خيانة أمي له.

تعبت من التوسل إليها،

تعبت من القول لها

إنني من دونها

سأموت غمًّا.

لم تشأ سماعي،

وإن كانت شفتاها قد انفتحتا

فإنما لتقول لي: لم أعد أحبك.

ظل هناك، جالسًا على أحسن حال، وبطانيته البوليفية تغطي ساقيه العاجزتين، ظل بعينيه المفتوحتين، متشبثًا بفنجان نبيذه الأحمر، ولم ننتبه إلى موته إلا بعد انتهاء روايتي للفيلم، حين لم يبادر إلى التصفيق كعادته.

وقد تحدث ممرض المركز عن سكتة قلبية.

لقد واجهتنا، فضلًا عن غم بقائنا وحيدين في العالم، مشكلة البيت: فأنا وإخوتي لن يكون لدينا مكان نسكن فيه؛ فبعد حادث العمل الذي تعرَّض له أبي، سمحت له الشركة بالبقاء في البيت بفضل سجل حياته الذي لا تشوبه شائبة في العمل: فخلال سنوات عمله كلها لم يتغيب قطّ، ولو بسبب المرض، كان يعمل من الاثنين إلى الأحد، بما في ذلك أيام الأعياد، من دون استثناء عيد الميلاد، أو رأس السنة الجديدة، بل إنه كان يعمل ورديتين متتاليتين إذا اقتضى الأمر، وكان هذا أحد الأمور التي تؤنبه عليها أمي. والآن بعد غيابه، لم يعد هناك شخص كبير مسؤول عن الأُسرة، ومن الطبيعي أنه سيكون علينا تسليم البيت. ولحسن الحظ أنهم قدموا لأخي «ماريانو» وظيفة العمل كمراسل، على الرغم من أنه كان لا يزال أمامه بضعة شهور لبلوغ الثامنة عشرة. وهكذا سمحت لنا الشركة بمواصلة السكن في البيت.

أناس كثيرون قالوا إن ذلك التصرف كان شفقة علينا من السيد المدير. أما أنا التي كنت قد أكملت الثالثة عشرة من عمري - بجسد يُمثل ما لا يقل عن ثمانية عشر عامًا - فلاحظت أن الدافع الحقيقي لم يكن الشفقة.

وقد عرفت ذلك من الطريقة التي كان ذلك المدير الغرينغو ينظر بها إليَّ في المقبرة يوم جنازة أبي.

(٣٤)

وهكذا واصلنا العيش في المركز، وظللنا نشغل البيت نفسه؛ فقد خُصص البيت الآن لأخي الأكبر. وفي ذلك العام تركت أنا المدرسة - وقد أكملت فيها السنة السادسة من التعليم الأساسي - وتحولت إلى ربة للبيت، ففضلًا عن ترتيب الأَسِرَّة وغسل الأطباق، صار عليَّ أن أتعلم الطبخ وغسل الملابس.

وواصلت في الأمسيات رواية الأفلام.

وفي حوالي الرابعة عشرة من عمري، وهي السن التي أنجبت فيها أمي وليدها الأول، صرت عشيقة السيد المدير. غير أنه في الفترة التي انقضت منذ موت أبي حتى بلوغي الرابعة عشرة، جرت سلسلة من الأحداث في حياتي، إنها مجموعة ظروف قادتني، من دون مفر، إلى ذراعي ذلك الغرينغو، وهو أمريكي عجوز ذو وجه أحمر، له عينان زرقاوان «سيناتريتان»، وكان منذ بعض الوقت «يهيئ لي المصيدة»، مثلما كان أبي يقول عن الرجال الذين كانوا يلاحقون أمي.

أما حديثي عن «العينين الزرقاوين السيناتريتين»، فهو كما تعلمون إشارة إلى «فرانك سيناترا»، وهذا ممثل آخر من نجومي المفضلين.


Twitter: @ketab_n

(٣٥)

أول ما حدث بعد موت أبي هو مأساة أخي «مارثيلينو»: فذات ليلة، بينما كان يلعب الغميضة في الزقاق، داسته العجلة الخلفية لسيارة جمع القمامة، وقد مات على الفور!

وكم بكيت وأنا متشبثة برأس أخي المُلقب «رأس الكتاب»!

وبعد فترة من ذلك، تعلَّق أخي «ميرتو»، ولم يكن قد تذوَّق حلاوة الحب قطّ، بأرملة شابة جاءت في زيارة إلى المركز، وقد كانت أرملة سوداء أكلت دماغه بطريقة لم يتردد معها في الذهاب برفقتها إلى مدينة «كويهايكي» على بعد أكثر من أربعة آلاف كيلومتر في جنوبي البلاد.

وغادر من دون أن يخبر أحدًا!

كان عمره ستة عشر عامًا، وعمر الأرملة ثمانية وعشرين.

بعد فترة من ذلك، جاء فريق كرة قدم محترف كان يقوم بجولة في الشمال، ولعب مباراة استعراضية مع فريق من المركز. وعندما رأوا لعب أخي «مانويل» افتُتنوا كثيرًا بحركاته ولياقته، وأخذوه معهم إلى العاصمة لتدريبه في فريق الصغار.

ولكنه ودعنا على الأقل!

ومع ذلك، فإن الحدث المُحزن - ليس أقل حزنًا من موت «مارثيلينو» - هو ما جرى لـ«ماريانو»، أخي الأكبر؛ فبما أنه صار يعمل في الشركة ويتقاضى أجر رجل بالغ، فقد مال إلى الشراب، وكان يخرج من العمل ويذهب للشرب مع أصدقائه. وذات ليلة، بينما هو مخمور تمامًا، خطر له أن يتبجح في الحانة، ويقول بأعلى صوته، إنه هو من قتل المُرابي القواد. بعد يومين من ذلك جاء متحريّو الميناء في طلبه واقتادوه معتقلًا.

لم يقل قطّ إنه قتل الرجل انتقامًا منه للقذارة التي ارتكبها، بل اكتفى بالقول إنه فعل ذلك ليسرق منه نقودًا، وإنه لم يجد سوى فتات خبز في جيوب المُرابي القواد.

وكضربة قاضية في هذه اللوحة، وصل في تلك الأيام بالذات أول جهاز تلفزيون إلى المكتب، وهو جهاز، مثلما كان ينتظر الجميع، سيقضي دفعة واحدة وإلى الأبد على السينما. اعتقال «ماريانو» ومجيء التلفزيون، حدثان وقعا في الوقت نفسه تقريبًا، هما ما حدد مصيري.

بغياب أخي صرت بلا بيت، وبمجيء التلفزيون صرت عرضة لخطر البقاء بلا عمل.

(٣٦)

يوم وصول أول جهاز تلفزيون إلى المعسكر كان استعراضًا حقيقيًّا.

كان «دون بريميتيفو»، صاحب محل الحلويات، قد أعلن في الرياح الأربع أنه سيسافر إلى الميناء ليحضر من هناك جهاز «مذياع بِقِرَدَة»، بل إنه أوصى على صنع هوائي من النحاس بطول ستة أمتار. وعلى هذه الحال، كان نصف من يعيشون في المعسكر في انتظاره بعد ظهر اليوم الذي نزل فيه من المركب وليس معه من أمتعة سوى صندوق كرتوني ضخم.

ألقى أمتن الشبان بنية على كاهله الصندوق المكتوب عليه «ويستنجهاوس»، ومضى ماشيًا يحيط به الحشد، وبينما جمع الأطفال يتقافزون حوله محاولين لمس الصندوق، كان الكبار المنفعلون حماسة يطلبون من الشاب أن يمضي بتمهل؛ كيلا تتعثر قدماه، لأن هذه الأجهزة شديدة الحساسية وسريعة العطب. وكما لو أنهم يحملون بالفعل تمثالًا للسيدة «عذراء تيرانا»، وصل الجهاز إلى محل الحلويات يتبعه موكب حقيقي من المؤمنين.

هذه الأمور أخبروني بها فيما بعد؛ فقد كنت في تلك الأثناء أشاهد فيلم رعاة بقر، بطولة «غاري كوبر». وعندما وصلت إلى البيت لم يكن هناك مَن

ينتظرني! صنعت لنفسي فنجان شاي وتناولته وأنا أحاول ألا أفكر في شيء سوى الفيلم الذي شاهدته للتو.

انتظرت بعض الوقت جالسة إلى المنضدة.

وبعد ذلك، شددت حول خصري الحزام ذا المسدسين الخشبيين، واعتمرت القبعة عريضة الحافة، ورحت أجرب قبالة المرآة «النظرة الفولاذية» التي يتطلع بها «غاري كوبر»، وجرَّبت عدة مرات «عملية السحب»: كنت أستل المسدسين من قرابيهما بأسرع ما يمكن، وأُطلق النار، وأدوِّرهما على سبابتيَّ، ثم أعيد إغمادهما في قرابيهما.

وكنت قد عرفت قبل قليل من ذلك أن رعاة البقر يطلون قراب المسدس بالشحم، ويبردون بمبردٍ شعيرة التصويب؛ من أجل التمكن من سحب المسدس بسرعة أكبر. لم يكن لمسدسي شعيرة تسديد، ولهذا لم يبقَ لي سوى تزييت قرابيهما. ولسوف أسعى إلى أن أحصل في اليوم التالي بالذات على قطعة شحم من دكان البقالة.

خرجت بعد ذلك ووقفت أمام الباب.

(٣٧)

في محل الحلويات، وبمساعدة كهربائي المعسكر، كان «دون بريميتيفو» يحمل كراسة التعليمات بين يديه، ويعكف باهتمام على جعل الجهاز المزعج يعمل. لقد وضعه على أحد الرفوف وراء منضدة الكنتوار، بين برطمانات السكاكر وحمالة علب السجائر. وكان المحل يغص بالناس كما لم يكن من قبل، حتى إن الدركيين اللذين كانا يقومان بدوريتهما الليلية الأولى ظلا في المحل ليشهدا الحدث الجديد.

وبينما الكهربائي منهمك في ضبط التوصيلات ومآخذ الكهرباء، كان «دون بريميتيفو» يتفحص كراسة التعليمات كما لو أنها خريطة كنز قراصنة، يقوم بتحريك مفاتيح مدورة ويضغط على أزرار. وفي أثناء ذلك كان يقف على السطح رجلان يوجهان الهوائي استجابة لتوجيهات الناس الذين يصرخون في جوقة من تحت:

«بذلك الاتجاه!»

«بهذا الاتجاه قليلًا!»

«إلى هنا!»

«إلى الوراء قليلًا!»

كانت أبصار الجميع مُسلَّطة على الشاشة تنتظر أن يظهر في أي لحظة شيء أشبه برؤيا سماوية. ومع ذلك، وعلى الرغم من الأزيز الذي لا يُطاق، فإن الشيء الوحيد الذي كان يُرى هو مجرد خطوط أو نقاط في حالة فوران، شيء أشبه بجائحة الجراد التي رأيتها في أحد الأفلام.

وبعد بعض الوقت، بدأت تظهر على الشاشة أولى صور ما يبدو أنه فيلم حربي. بدت هيئة الشخوص ممحوة، كأنهم يتحركون تحت الماء، ولكن لم يكن يُسمع أي شيء على الإطلاق، اللهم إلا ما يشبه زيت يُقلى فيه سمك - وهذا يشبه الأزيز - وتُسمع بين حين وآخر، بصورة متقطعة، نتفًا متفرقة من جُمل وعبارات تبعث الحماسة في الحشد.

وفي اللحظات العابرة التي تنساب فيها الصورة والصوت، يطلق الجمع صرخات رهيبة موجهة إلى الرجلين اللذين يحركان الهوائي:

«ثبته هكذا!»

ولكن الأزيز وجائحة الجراد لا يلبثان أن يعودا بعد قليل.

كنت أنظر إلى الأشخاص المحتشدين قبالة الجهاز - وكثيرون منهم من المواظبين على روايتي للأفلام - وأرى كيف تلمع عيونهم في تلك اللحظات التي تتوافق فيها الصورة مع الصوت. لقد كانت تلك العيون تلمع مثلما كان يحدث لهم في بيتي، حين أضع قناع «زورو»، وأتلاعب بالسيف، ثم أقوم بثلاث حركات متقنة تخلّف حرف «Z» مرسومًا بوضوح في الهواء.

(٣٨)

خرجتُ من محل الحلويات بمشاعر متناقضة!

فمن جهة، كنت أحدس حقيقة ما يقال: إذا ما تمكن التلفزيون من الانتشار، فسوف يقتل السينما بصورة لا مفر منها، ولكنني كنت أشعر كذلك بقدر ضئيل من الأمل لمهنتي؛ لأنني بعد أن رأيت ما تمثله تلك المسألة، قلت لنفسي بقناعة إن أحدًا لن يُفضِّل رؤية تلك الصور الشبحية الغائمة - ومن خلال ذلك الصندوق البارد - على سماعي وأنا أروي الأفلام.

وعلى الرغم من أنني كنت أعي تمامًا أن ذلك الجهاز سيُمارس تأثير افتتان لا يقاوم على من يشاهده، إلا أنني أدركت كذلك أنه بعد انقضاء مرحلة الانبهار بالحدث الجديد، سيستيقظ الناس، وينفضون السحر عن أنفسهم مثلما تنفض الكلاب الماء عن نفسها، وسيعودون مجددًا إلى السينما، وإلى غرفة المعيشة في بيتنا.

وسوف أعود عندئذ إلى رواية الأفلام.

ذلك أن التلي - مثلما صار يسمي بعضهم التلفزيون تحببًا - ما هو إلا أشبه بلبان جديد: ما إن يُمضغ بالقدر الكافي حتى يفقد مذاقه ولا مفر لنا عندئذ من أن نبصقه دون ندم.

ولسوف أرى ذلك!

(٣٩)

عند وصول التلفزيون، كان قد مضى أسبوع على اقتيادهم أخي سجينًا. وذات صباح يوم اثنين، وكنت قد بدأت أسأل نفسي: لماذا لم يأتِ أحد من الشركة ليخبرني بأنه عليَّ أن أُسلِّم البيت، ظهر وجه السيد المدير الأحمر محاطًا بإطار النافذة.

وعلى الرغم من أن الشمس تتدفق بقوة خلال أيام السنة كلها في منطقة البامبا، إلا أن ذلك الصباح الغريب كان غائمًا، وكنتُ في تلك الأثناء قد توصلت إلى اليقين بأن الأمور السيئة تصيبني في أيام غائمة. فإذا كان صحيحًا ذلك القول عن أن «العناكب لا تنسج نسيجها إلا في أيام غائمة» - وقد كان أبي يقول إن جدته كانت تردد ذلك دومًا - فإن سوء حظي سيكون أشبه بعنكبوت من أشد العناكب انكبابًا على شغله.

عندما أطل الغرينغو من النافذة ونادى عليَّ بلكنته الأجنبية المضحكة، كنت أرتدي فستان أمي ذا الخرز الأحمر والكشكشات المخرمة، الذي كان أبي يكرهه بشدة، وقد صار الآن مطابقًا لمقاسي.

أدخلته إلى البيت.

دخل وهو ينظر إليَّ مثلما نظر إليَّ ونحن في المقبرة. وكان في عينيه ذلك البريق نفسه الذي رأيته في عيني المُرابي عندما كنت أنا شديدة البلاهة، أروي له الفيلم جالسة على ركبتيه. ولكن السيد المدير أفضل مظهرًا من العجوز المُرابي البخيل. وقد كانت عيناه زرقاوين، وكان الناس يقولون إنه غرينغو لطيف.

كان يضع قبعة بنما.

ويدخن غليونًا.

ويتكلم إسبانية تبعث على الضحك.

ويقال أيضًا إنه كان متزوجًا حين جاء إلى هذه القرى، ولكن زوجته فضَّلت العودة إلى بلادها حين رأت منظر صحراء «أتاكاما» الذي لا يُطاق، ويقال إنها قالت: «النساء هنا يتحولن إلى تماثيل من ملح».

سألني السيد المدير إذا ما كنت أعلم بأنه عليَّ أن أُسلِّم البيت.

قلت له: نعم!

سألني إن كان لديَّ مكان أذهب إليه.

قلت له: لا!

سألني إن كنت أرغب في البقاء.

قلت له: نعم!

سألني عما إذا كنت أعرف عمل أشياء أخرى غير رواية الأفلام.

قلت له: لا!

عندئذ ظل ينظر إليَّ نظرات خبيرة، كمن ينظر إلى حصان سباق. أخذ بعد ذلك مجة تفكير عميق من الغليون، وراح يتمشى قبالة الجدار الأبيض حيث كنت أروي أفلامي. وقفت أراقبه بصمت. وعندما توقف وعاد ينظر إليَّ وهو يداعب ذقنه، تذكرتُ - بسبب حركته في مداعبة ذقنه - أنني رأيته ذات مرة في بيتنا يتحدث إلى أمي، وذلك في الزمن الذي كان فيه أبي لا يزال يعمل.

أخيرًا قال لي: «سنرى ما الذي يمكن عمله من أجلك أيتها الفتاة».

والمسألة أنني انتهيت إلى العمل كعاملة تغليف في محل بقالة المركز، وإلى النوم في الليل بين ذراعي السيد المدير. وعلى الرغم من أننا لم نكن في الأرياف، ومن أن الأمر غير شائع هنا، إلا أنني كنت في الرابعة عشرة بينما كان الغرينغو في الحادية والخمسين.


Twitter: @ketab_n

(٤٠)

بدأ التلفزيون يستحوذ على اهتمام المعسكر وينتشر فيه كانتشار جائحة وباء مجهول وسريع العدوى. ودون أن يكون له، كما يبدو، أي لقاح مضاد معروف.

فبعد محل «دون بريميتيفو»، دخل إلى نادي الموظفين؛ حيث وضعوا جهازًا جديدًا. وبعد ذلك في نقابة العمال. وبعدها في المحل الذي كان لـ«دونيا فيليبيرتا» المتوفاة. وبعد ذلك بدأ الناس يُوقِعون أنفسهم في الشرك ويشترون أجهزتهم الخاصة. وقبل انقضاء عام واحد كان الجميع يملكون جهازًا في بيوتهم. فقد اشترى العمال أجهزة من مقياس ١٤ بوصة، واشترى الموظفون والمسؤولون أجهزة مقياس ٢٣ بوصة. وتحوَّلت أسطح البيوت إلى غابات هوائيات، وبدأت كلمات غريبة جديدة تُسمع في كل مكان: أوديو، إشارة، جهاز تنقية، قناة، ست.

لقد جاء التلفزيون ليستقر نهائيًّا ويقيم بيننا.

بدأت تُرى أول مرة في السينما صفوف كاملة من المقاعد الشاغرة. وتخلَّى الناس، بالطريقة نفسها، عن الذهاب للجلوس في ساحة القرية.

وحتى الشوارع صارت تبدو مقفرة أكثر مما كانت عليه على الدوام، ولا سيما في الأوقات التي يبث فيها التلفزيون «برنابس كولِنز»، وهو مسلسل مصاصي دماء مثير للاشمئزاز.

أما أنا، ففي أوقات متباعدة فقط كانت إحدى العجائز - ممن لا يملكن جهاز تلفزيون - ترسل في طلبي كي أروي لها فيلما قديمًا، أو يدعونني إلى نقابة العمال للغناء كفقرة حشو في سهرة فنية.

وفي مثل هذه المناسبات، وعلى الرغم من أن التصفيق لي لم يعد هو نفسه، إلا أنني كنت أستعيد السعادة!

(٤١)

وكان أن حدثت في تلك الأثناء أمور غيَّرت العالم: بدأ ظهور الهبيين، ووصل الإنسان إلى القمر (عرضوا ذلك في التلفزيون)، ووصل «سلفادور ألليندي» إلى السلطة، ومرَّ القومندان «فيدل كاسترو» ذات يوم من الشارع الرئيسي للمعسكر المنجمي (لم نتمكن إلا من رؤية لحيته تطفو خلف زجاج السيارة).

وفي الجنوب، في قرية مسقط رأسها، انتحرت أمي؛ شنقت نفسها على شجرة تين! وقالوا إنها فعلت ذلك مستخدمة مناديلها الحريرية، تلك المناديل التي أحبتها كثيرًا.

علمتُ بالأمر بعد شهرين من حدوثه.

وفي أثناء ذلك وقع انقلاب الجنرال «بينوشيت» العسكري. اختفى القطار. واختفت الثقة.

واختفى كذلك السيد المدير!

عيَّنوا ضابطًا ليشغل منصبه. وظللتُ أنا وحيدة من جديد. لقد غادر من دون أن يودعني. يقال إنه رجع إلى بلاده، ويهمس آخرون بأنه قد أُعدم رميًا

بالرصاص. لقد بدأت أشعر بالحب تجاه الغرينغو في الفترة الأخيرة، فعلى الرغم من أنه كان يسكر أحيانًا ويضربني، إلا أنه لم يكن شخصًا سيئًا.

بل إنه أهدى إليَّ جهاز تلفزيون.

لقد كان في أعماقه شخصًا متوحدًا وعاطفيًّا. يعاني كثيرًا بسبب عقمه. وقد كان بطريقة ما شبيهًا بأبي: شخص عاجز من خصره إلى أسفل.

(٤٢)

ما جرى بعد ذلك صار معروفًا: جاء إغلاق المركز، وغادر الناس جميعًا!

كانوا يغادرون باكين!

أما أنا فبقيت! ظللت وحدي! لم يكن لديَّ مكان أذهب إليه، أو مَن أذهب معه! فأخي «ميرتو» الذي هرب مع الأرملة، لم أعد أعرف أي خبر عنه. والشيء نفسه حدث مع أخي «مانويل»، لاعب كرة القدم، فأنا لم أسمع قطّ مَن يذكر اسمه ضمن أي نادٍ من أندية العاصمة. وهناك من قال لي يومًا إنه شوهد مخمورًا في أحد مواخير مدينة «بالبارايسو».

أما «ماريانو» فلا يزال في السجن! فعندما كان على وشك إنهاء فترة سجنه بسبب قتل المُرابي، تشاجر مع سجين آخر وقتله. وقد أصيب هو أيضًا بجراح. وحكموا عليه بسنوات سجن مماثلة للمرة الأولى. وقد استطعت الذهاب لزيارته مرتين فقط.

طلب مني ألا أعود لزيارته!

وقال إن زيارتي تُشعره بالاستياء!

وأنا أيضًا كنت أشعر بالاستياء عند زيارته! فقد كنت أرى في حركاته وإيماءاته تشابهًا مع حركات وإيماءات الأشرار في الأفلام (كان يبصق من جانب فمه وهو يتكلم). أضف إلى ذلك أنه لم يعد يتلعثم في الكلام بعد قتله المُرابي، وكان ذلك يسبب لي رعبًا لا أجد له تفسيرًا.

زيارتي الأخيرة له قمت بها؛ لأنقل له خبر موت أُمِّنا.

(٤٣)

أظن أنني المرأة الوحيدة التي تعيش وحدها في قرية شبحية! وقد تدبرت أمري هنا بالعمل كدليل للزائرين، كما أنني أعرض للبيع كراريس تتحدث عن تاريخ نترات ملح البارود، وصورًا قديمة، وأعدادًا من مجلة «إيكران»، ودُمى من الخرق القماشية، ومجسمات شاحنات صغيرة من الصفيح، وأشياء أجدها في أثناء تجوالي في البيوت المهجورة.

بعض من يأتون لرؤية بقايا منجم ملح البارود يسألونني بذهول: كيف استطعنا العيش في ذلك القفر؟

المشهد يبدو لهم أسوأ من إقليم في الجحيم.

وأرد عليهم بأن المكان في نظرنا كان فردوسًا! وأحدثهم عن الحياة التي كنا نعيشها في المعسكر: لم يكن هناك مَن يموت جوعًا، كنا نساعد بعضنا بعضًا، ونستطيع النوم في الليل وأبواب بيوتنا مفتوحة دون أن يحدث شيء، ويستمع إليَّ الزائرون غير مصدقين؛ بعضهم يستمع بشيء من الأسى، ولا يُعدم من بينهم مَن يعاملني على أنني امرأة «نوستالجية»، رومانسية، متأثرة بالمسلسلات المصوَّرة.

كثيرون منهم يظنون أنني مجنونة.

لم أكن أهتم بذلك، بل على العكس؛ فعندما أكون أشد إلهامًا، أجيء بهم إلى هذا البيت - أو إلى ما تبقى من هذا البيت - وهو البيت الذي عشت فيه حياتي كلها. وأروي لهم هنا قصة الطفلة «راوية الأفلام»! يصغون إليَّ بذهول، وبخاصة الشباب منهم. ففي عالم التكنولوجيا الحالي، يبدو لهم الحديث عن حالة راوية أفلام غير قابلة للتصديق.

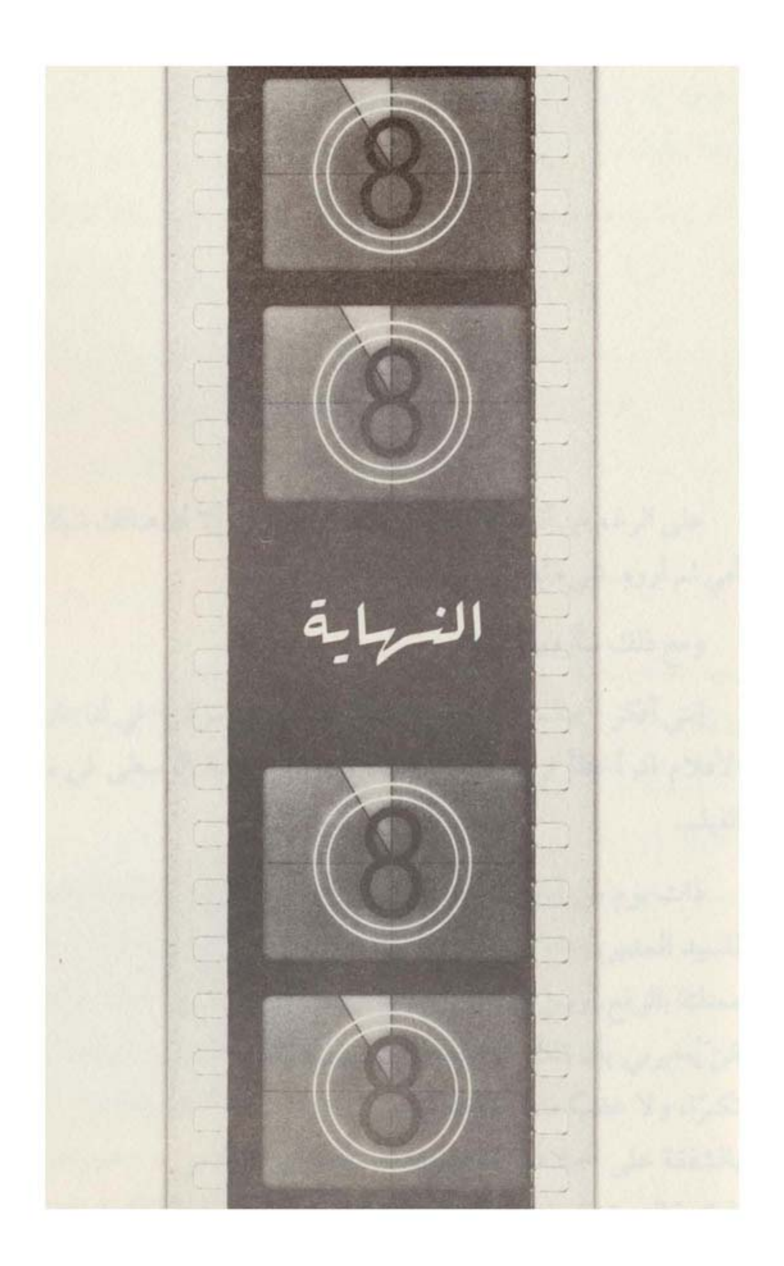
وعند الغروب، حين ينسحبون في سياراتهم عائدين إلى مدنهم، أعود مجددًا إلى ما أنا عليه: شبح قرية مهجورة!

أم إنني تمثال من الملح يا تُرى؟

عندئذ أصعد إلى برج الكنيسة لتأمل الأفق. كل غسق هو أشبه بنهاية بانورامية لفيلم قديم، فيلم سكوب وألوان، وضجة الريح التي تصفع سقوف الصفيح هي الموسيقى التصويرية المرافقة، إنه فيلم يتكرر يومًا بعد يوم. وهو حزين أحيانًا، وفي أحيان أخرى أقل حزنًا.

ولكن نهايته هي نفسها على الدوام:

فعلى خلفية شاشة الغروب تلك كنتُ أرى أبي يمضي على كرسيه ذي العجلات، وأرى مضي إخوتي، واحدًا واحدًا، وأمي بمناديلها الحريرية التي تخفق مع الريح. أراهم يمضون مغادرين مثلما غادر سكان المعسكر المنجمي كلهم! أراهم يتلاشون في الأفق مثل سراب، بينما تكون الموسيقى التصويرية آخذة في الانطفاء شيئًا فشيئًا! وعلى ظلالهم الباهتة تظهر، بحزم وحتمية، الكلمة التي لا يرغب أحد في الحياة في قراءتها...


النهاية


Twitter: @ketab_n

(٤٤)

على الرغم من أنكم صرتم تعرفون نهاية القصة، إلا أن هنالك شيئًا عن أمي لم أروهِ. شيء تحزنني روايته!

ومع ذلك سأرويه اليوم:

إنني أفكر - مثلما كان يحدث أحيانًا في سينما المركز - في أن عارض الأفلام قد أخطأ في ترتيب العلب، وعرض العلبة الوسطى في نهاية الفيلم.

ذات يوم من أيام الشتاء، في الزمن الذي كنت فيه العشيقة الرسمية للسيد المدير، جاء سيرك إلى المعسكر المنجمي. سيرك فقير، خيمته ممتلئة بالرقع. وبين فقرات العرض كانت هنالك فقرة لراقصة. وقد جاء مَن يُخبرني بأن تلك الراقصة هي أمي! لم أشأ الذهاب لرؤيتها؛ ليس تكبرًا، ولا غضبًا منها، وإنما بسبب الشفقة! كنت أشعر بالشفقة عليها، بالشفقة على أحلامها المقطوعة - مثلما هي أحلامي - وعلى حياتها البائسة التي تعيشها في ذلك السيرك الفقير. كان عمرها آنذاك حوالي ستة وثلاثين عامًا. وكنت أنا في الثامنة عشرة، أعمل «عاملة تغليف في محل

بقالة»، وكنت عشيقة رجل يكبرني بحوالي أربعين عامًا. رجل لن يتزوج مني قطّ. وهو رجل كان فوق ذلك كله، مثلما يتهامس الناس، عشيقًا لأمي أيضًا من قبل!

لقد كنا كلتانا في الحقيقة حلمين مقطوعين!

ولهذا قررت في تلك الليلة الانزواء في البيت وعدم الخروج لرؤيتها. لم أستطع مقاومة ذلك! وقد أدركت فيما بعد أنني أحسنتُ صنعًا؛ ففضلًا عن ضآلة عدد جمهور الحضور، كان العرض مثيرًا للشفقة.

وقد صفق الناس لها بدافع الشفقة!

بعد العرض، بينما كان المهرجون - وهم يقومون في الوقت نفسه بدور بوابين، وبهلوانات، وسحرة - منهمكين في فك خيمة السيرك، سمعت وقع كعبي حذاء نسائي يقترب على الرصيف ويتوقف عند الباب. بدأت أرتجف. بعد ذلك طرق أحدهم الباب. لم يبقَ لديَّ أدنى شك. إنها طريقة أمي في قرع الباب. استندتُ إلى الباب مصارعة الرغبة في فتحه. كان تنفسها يُسمع في الجانب الآخر. «افتحي يا ابنتي.» راحت تقول وهي تنتحب. وأنا أيضًا كنت أبكي. كنا أشبه بغريقتين تتشبثان بقطعة الخشب نفسها. لم يعد للبيت، ولا للشارع، ولا للمعسكر من وجود. لا شيء سوانا، هي وأنا، على جانبي الباب.

أنا وهي وحدنا كما لو أننا على جانبي العالم.

بعد بعض الوقت تعبت من البكاء، وسمعت وقع ابتعاد كعبي حذائها.

وبينما كان شيء فيَّ راغب في الركض وراءها، ظلت يدي ممسكة بمقبض الباب. ظللتُ أبكي ثلاثة أيام من دون توقف!

وفيما بعد، عندما علمتُ بموتها، لم أذرف دمعة واحدة؛ فقد كان ذلك كما لو أنني قد شاهدت هذا الفيلم مرتين.


Twitter: @ketab_n

عن المؤلف

ولِد «إيرنان ريبيرا لتيلير» في تشيلي عام ١٩٥٠، وترعرع في قرية يعمل أهلها في استخراج المِلح من المناجم وسط صحراء «أتاكاما». نال عديدًا من الجوائز، من بينها الجائزة القومية للكتاب بتشيلي لعامي ١٩٩٤ و١٩٩٦، وكذلك وسام الجمهورية الفرنسية بدرجة فارس في الآداب والفنون؛ وذلك عن جهوده في سبيل نهضة الفن ونشره في العالم.

عن المترجم

ولِد صالح علماني في مدينة حمص بسوريا عام ١٩٤٩. درس الأدب الإسباني، وقضى أكثر من رُبع قرن في ترجمة روائع الأدب اللاتيني ليُعرِّف القرَّاء العرب على عشرات الأعمال المتميزة والمُهمة. ترجم أعمال: «غابرييل غارسيا ماركيز» و«إيزابيل ألليندي» و«بابلو نيرودا» و«خورخي لويس بورخيس» و«جوزيه ساراماغو» و«ماريو بارغاس يوسا» و«إدواردو غاليانو» و«أنطونيو سكارميتا» و«خوسيه ماريا ميرينو» و«جيوكوندا بيللي» و«ميغيل دي أونامونو» و«مانويل ريفاس» و«ماريو بينيديتي» و«ميغل أنخل أستورياس» و«خوان رولفو» و«برناردو أتشاغا» و«برناردو كوردون».. وآخرين.

«للمرة الأولى وبعد أعوام عدة يبرز في أدب أمريكا اللاتينية
عملًا جديدًا يتميز بالأصالة»
- مجلة لو ماجازين ليتيرير، فرنسا

«إيرنان ريبيرا لتيلير أحد أكثر الأصوات إبداعًا
في عالم الأدب الروائي بأمريكا اللاتينية»
- جريدة إل موندو، إسبانيا



«أكثر الروايات التشيلية الحديثة تميزًا»
- جريدة كلارين، الأرجنتين

«ماريا مرغريتا» فتاة يافعة من إحدى القرى الصغيرة بتشيلي. اشتهرت بقدرتها الآسرة على إعادة سرد قصص الأفلام: فكلما عرض فيلم جديد في سينما القرية، أعطت لها عائلتها النقود لكي تشاهده، أيًا كان نوعه، سواء كان هذا الفيلم أحدث أفلام «مارلين مونرو»، أو «غاري كوبر»، أو حتى فيلمًا غنائيًا من المكسيك، فتشاهد الفتاة الفيلم، ثم تعود بدورها لتحكيه لهم بطريقتها الجذابة.

يروي لنا «إيرنان ريبيرا لتيلير» بأسلوبه السحري الرقيق والمؤثر قصة يسترجع فيها ذكريات دور السينما في أوج مجدها في أمريكا اللاتينية.

www.bqfp.com.qa
ISBN 978-99921-94-01-0





تصميم: طارق الدبسي | صورة الغلاف: طوني أندرسن/جتي